الرداء

رواية

رقم الايداع: ٢٠١٥/٢١٧٣٠

رقم الترقيم الدولي : 978-977-6412-84-6

الرداء
أحمد عبد ربّه

(١)

الرداء (الفترة الأولى)

شمس حارقة ورمال مشتعلة، ورجال جالسون على لهيبها، في اجتماعٍ لا كلمة تعلو فيه على كلمة اليأس، فقال أبو الفداء:

"يا قوم، إن بقينا على حالنا هذا فسوف نموت كلنا قريبًا... فالأرض قد صارت قاحلة والآبار أوشكت أن تجف، ونحن لا نحرك ساكنا... إلى متى سنظل هكذا!؟".

نظر إليه أحدهم وسأله وهو عابس الوجه، أكثر من عبوس وجوه الجميع: "وماذا علينا أن نفعل؟".

أجاب أبو الفداء: "علينا أن نذهب ونبحث هنا وهناك عن موطنٍ آخر، فهذه الأرض لم تعد صالحة للعيش".

قال آخر بنبرةٍ غاضبة:

"ما هذا الكلام الذي تقوله! أتريد أن نتشرد ونموت في أرض غريبة؟ ... فإن كنا سنموت فلنموت هنا، على أرضنا، في ديارنا وبين أهلنا... لا أن نموت مثل الكلاب الضالة".

قال أبو الفداء متعجبًا:

"ومن قال لكم إننا سنموت!؟ فنحن سنذهب ونبحث في أرض الله الواسعة عن الحياة... فكما يرى الكل، العيش هنا صار قاسيًا، فعلى أي شيء تخافون حتى تقولوا هذا الكلام؟".

صاحوا جميعًا رافضون كلامه، وقد ازدادت وجهوهم عبوسًا حتى كادت تتشقق: "هذا كلام غير مقبول، فنحن لن نترك أرضنا ونموت غرباء"؛ فقام أبو الفداء وهو يقول: "حسنًا، ابقوا كما أنتم ونالوا ما كُتب لكم"، ثم انصرف وتركهم وهو يشعر بالحسرة وخيبة الأمل، وبينما هو يسير ببطء بين البيوت التي تفوح منها روائح الفقر، أحسَّ بكآبة لم يشعر بها من قبل، وتيقَّن من أنه لن يقدر على مواصلة العيش على هذا الحال بعد تلك اللحظة القاتمة، فحين وصل إلى بيته قال لزوجته:

"إن سمعت كلامهم وبقينا هنا فسنموت من الجوع والعطش، يجب أن نفعل شيئًا ننقذ به أنفسنا، وننقذ البلد بأكمله من ذلك المصير المذل".

سألته الزوجة: "وماذا يمكن أن نفعل برأيك؟"

فأجابها بثقة وجراءة غير مصطنعة: "أنا سوف أفعل... سوف أذهب وأبحث عن الحياة، فعلى الأقل إن هلكتُ، أهلكُ بشرف؛ ليس وأنا جالس أبكي حتى يأكلنا الجوع والعطش ببطءٍ وذل".

سألته في حيرة وقلق: "ولكن ستذهب إلى أين؟ وتتركنا لمن؟".

"لا أعرف إلى أين، وسأترككم في رعاية الله، فهو خير حافظا"، أجاب أبو الفداء فأخذت تنظر إليه وهي تشعر بالخوف، ثم قالت بعد صمتٍ قصير: "ونعم بالله، ولكني أرجوك أن تحافظ على نفسك وأن تعدني بأن تعود إلينا سالما".

"أعدك أنني سأسعى كي أعود بما يزيل كرب هذا البلد ومن فيه، ويجلب إليهم الفرح الذي غاب وزالت ذكراه، وبالله التوفيق".

"حقق الله لك ما تتمنىَ... وحفظك بما يحفظ به عباده الصالحين".

"اللهم آمين"، قالها أبو الفداء وهو يشعر بالخوف الشديد مما هو مُقْدِم عليه، فالأمر ليس أقل من مغامرة يمكن أن تكون انتحارية... فهو سيمشي على قدمه في صحراء واسعة إلى هدف ليس له أي دليل من دلائل الوجود، وحيدًا بلا رفيق، يحمل قليلًا من الطعام والشراب، مرتديًا لباسًا باليًا، بلا سلاح يدافع به عن نفسه إن واجه أي اعتداء، ولكن شيء ما بداخله كان يخبره بأنه يتجه نحو ما يريد، بل أكثر بكثير مما يريد... ولذلك لم يتراجع مَهما رأى من رعبٍ في عين زوجتهِ، ومهما حاول الخوف أن يسيطر على قلبه، وجهَّزَ نفسه وحمل أغراضه وانطلق بمجرد أن أشرقت الشمس في طريق لا يعرفه ولا يعرف مداه.

* * *

استمر أبو الفداء يمشي في الصحراء الشاسعة ذات الحرارة المتوهجة متوكلًا على مولاه حتى أنهكه التعب، فجلس يتناول بعض الطعام، وبعد أن انتهى أكمل السير في طريقه المجهول بأمله البعيد؛ وظل هكذا حتى حلَّ المساء وازدادت برودة الجو، فأوقد النار في بعض الحطب الذي جلبهُ معه قبل أن

يُغادر وجلس يتدفأ به... ثم غرق في سبات عميق حتى اقترب فجر اليوم الجديد، وفي اليوم الجديد واصل المشي والبحث عن أي شيء يُوحي بالحياة، ولكنه لم يجد سوى الأرض الخالية المقفرة.

لقد كان يتمنى إيجاد أرض خصبة، نهر، بحيرة... أو أي قرية بها بشر. ولكنه لم يجد ولو علامة واحدة تدل على ما ذُكِر... وبعد أن استمر على حالهِ هذا لأربعة أيام، وقد نفد الطعام والشراب والحطب، شعر باليأس وقال في حزن:

"يبدو أن نهايتي ستكون كما قال أهل البلد؛ فقد قطعت مسافة لن أقدر على قطعها مرة أخرى من دون زاد". ثم جلس على الأرض وبدأ يتأمل ويحاول التفكير لإيجاد مخرج؛ رغم عجزه عن تخيل أي احتمالات تحمل فوزًا أو نجاة... وبينما هو جالس ينظر يمينًا ويسار، لَمَحَ شيئًا من بعيد وكأنه مرتفعٌ من الصخور. فوقف على الفور وتحرك نحوه حتَّى بدا واضحًا لعيناه.

لقد كان ذلك الشيء بيتًا صغيرًا مَبْنِيًّا من صخورٍ حمراء غريبة الشكل، فأخذ يقترب منه ببطء وحذر حتى صار يقف

مباشرة أمام بابه القديم المتهالك، في وقت كان الغروب قد حلَّ كاملًا، فقال لنفسه:

"حمدًا لله أنني وجدت ما أبات فيه ليلتي، فقد شبعت من النوم في العراء"، وأشعل مصباحه الصغير، ثم دفع الباب الذي انفتح بسهولة ودخله وهو ينظر حوله ليتفقد حالته، فلم يجد فيه أي أثاث سوى شيء جعله يتعجب، وهو فراش نظيف ومُرتب، عليه غطاء حريري لامع أشعرهُ أن أحدًا ما كان يرقد عليه، فتساءل:

"يا ترى لمن هذا الفراش!؟ هل هناك من يسكن هذا البيت؟". ثم استمر يفكر قليلًا وأكمل: "حسنًا، سأنام هنا؛ وإنْ أتى أحد فلنساعد أنفسنا على إيجاد ما ينفعنا". وبعد عدة ساعات منذ دخوله البيت، حان وقت النوم، فاستلقى على الفراش المكون من الخوص، وغطَّى جسده بالغطاء الحريري، ثم غرق في سبات عميق.

بعد منتصف الليل بقليل اشتد البرد عليه، فاستيقظ من نومه وجلس في حزن وعجز يقول بينما جسده يرتجف:

"يا ليتني أجد حطبًا حتى أُحِدُ من هذا البرد الذي سيقتلني قبل موتي من الجوع والعطش". ثم بدأ ينهض وهو يبعد الغطاء عن جسده، فإذا بيده تصدم شيئًا وتُوقعه... ولمَّا سمع هذا الصوت أشعل المصباح على الفور، ونظر ليجد أن ما صدمته يداه كان حطبًا، وكأنه كان متراصًّا بجانبهِ؛ فأخذ يتساءل في دهشة:

"ما هذا! من أين أتى هذا الحطب يا ترى؟، هل كان موجودًا ولم أره حين دخلت أول مرة؟ أمْ أنَّ أحد جلبه إلى هنا حين كنت نائمًا؟". ثم بعد التدقيق والتفحص والبحث في ذاكرته لثوانٍ لم يتذكر شيء، فابتسم وقال:

"المهم أنني وجدت ما كنت أبحث عنه والحمد لله"، ثم أخذ يحمل قطع الحطب ويَرصُّها جيدًا وأشعل فيها النار، ليستلقي على الفراش ويعود إلى النوم من جديد الذي استمر حتى مطلع الفجر.

بعد أن استيقظ أبو الفداء صلَّ الفجر ومكث يدعو الله حتى طلوع الشمس، ومع عدم قدوم أحد، أصابته الحسرة بعد أن تأكد مِن أن البيت مهجور، وأنه لن يجد رفيق أو دليل لرحلته

الغامضة، فاستقام واقفًا وقبل أن يخرج من البيت لاحظ وجود رداء مُلقى بأحد أركانه–م يره حين دخل ليلة أمس في الظلام–فمد يده وأمسك به وتفحصه جيدًا وتأمل شكله العجيب، ثم ارتداه ليغطي به ملابسه البالية وأكمل الخروج باحثًا عن الحياة التي أراد أن يجدها، وبعد أن مشى قرابة الساعة شعر أنه سيموت من العطش فهو لم يشرب منذ يومين، فَتَنَهَّدَ وَقَالَ جَهْرًا:

"يا رَبِّي كمْ أتمنى ولو قطرة ماء".

ومع نُطْقِ الحرف الأخير، ظهر شيء على مقربة من عينيه، ولمَّا دقق فيه جيدًا بدا وكأنه نبع مياه، فساوره الشك وظنَّ أن ما يراه سراب سببتهُ حرارة الشمس التي أثرت في رأسه، فأخذ يقترب ناحيته ببطء وهو يحدق بشدة حتى وصل إليه، ثم مدَّ يده ليعرف ما إذا كان حَقِيقِيًّا أم أن بشائر نهايته قد بدأت، وحين لمسه كانت المفاجئة التي أذهلت عقله، وشرحت صدره، وأفرحت قلبه الظمآن، ورسمت ابتسامة غابت لزمن طويل... فالأمر لم يكن مجرد إيجاد نبع مياه يروي عطشه ويبقيه حيًّا لفترة من الزمن، بل كان نجاحٌ تَحَقَّقَ مهما

كانت ضآلة حجمه، وأمل لقادم مبشر يمحو الصورة القاتمة التي سيطرت عليه وكادت تهزمه؛ فظل يحمد الله وهو يروي ظمأ جوفه كجملٍ لم يشرب منذ سنوات، وبتلك الطاقة المكتسبة واصل السير وهو يُذكر نفسه بضرورة تذكر مكان النبع، ربما يعود إليه لاحقًا، وبعد أن مشى لدقائق، رأى أرنبٌ مليءٌ باللحم، فقال جهرًا وعلى وجهه ابتسامة عريضة:

"يبدو أن فرج الله قد أتى من كل جانب، بعد الماء والارتواء حان وقت الطعام، ولكن يا ترى كيف سأمسك به، فكم أتمنَّى أن أجد ما يُمَكِّنُني من صيد هذا الأرنب الطيب السمين". وبدأ يفكر ولكنه لم يأخذ فرصة للتفكير، فقد ظهر كلب بجانبه جرى بسرعة ناحية الأرنب حتى أمسك به، ثم عاد إليه يحمله بين أنيابه، صيد نظيف جاهز للذبح... ما جعله يتساءل في حيرة عما يحدث، فلم يعد يُدرك حقيقة ما يراه ويشعر به، وجاءه ظنٌّ يقيني بأنه نائم وأن كل هذه الرحلة مجرد حلم سيصحو منه عمَّا قريب، ليجد نفسه في بيته بين أفراد أُسرته... فمنذ أن وجد الحطب ثم نبع المياه ومن بعدهما الكلب الصياد، وهو يشعر بوجود شيء غير مألوف، فهل هي بركة البيت العجيب الذي بات فيه ليلته حلَّت عليه

وجعلت ما يتمناه يتحقق، ظنَّ هذا ثم استدار وتحرك نحوه، ولكنه بعد عدة خطوات تذكر الرداء الذي يرتديه والذي أخذه معه من البيت قبل المغادرة:

"أمْ أن السر في الرداء الذي أرتديه؟ ... ربما يكون رداء الأحلام الذي كنا نقرأ عنه في روايات الطفولة؛ يا ليتهُ حقًّا هو، وما الداعي للحيرة، فسأجرب الرداء أولًا، وإن لم يكن هو، سأذهب إلى البيت"، قال في نفسه ثم قام بخلع الرداء وتمنَّى: "أتمنَّى جوادًا أصيلًا الآن". انتظر قليلًا فلم يحدث شيء، فارتداه من جديد وكرر الأمنية نفسها وهي الحصول على جواد، فلم يكن هناك وقتًا للانتظار، ففي أقل من لحظة وجد جوادًا جذابًا يقف أمامه، فصاح وهو يكاد يطير من الفرح:

"إذًا هو الرداء، إنه رداء الأحلام، الحمد لله، الحمد لله... سوف أذهب الآن إلى أهل البلد وأخبرهم بما حصلت عليه وأحقق لهم كل أحلامهم، أخيرًا سنعيش الحياة التي لم نَرَهَا حتى في خيالنا الفقير، وسيرى الكل أحلامه وهي حقيقة واقعة، أخيرًا سنُودع الفقر والحرمان والمعيشة الضنك، الحمد

لله على هذه النعمة الغالية... ولكن يا ترى ماذا سأقدم لهم، وما هي أحلامهم". وبعد التفكير والتخيل لثوانٍ قال:

"نعم، هذه هي بالتأكيد، سوف أجعل لكل واحد منهم بيتًا جميلًا وحديقة فيها من كل الثمرات، وبئر كبيرة". ثم تراجع:

"ولكن إن أراد أحدهم قصرًا، فلمَ لا أعطيه قصرًا... إذًا سأُعطي لكل منهم قصرًا بدلًا من البيت"، ثم أتت الحيرة مجددا:

"ولكن إن كان أحدهم لا يريد قَصْرًا، فهناك من لا يحب المنازل الضخمة... إذًا سأترك لهم الخيار وليقولوا لي أمانيهم وأنا أحققها لهم". وبعد التفكير المشوش من قوة الحدث الذي يكفي كي يُذهب العقل:

"ولكن هذا الأمر لن ينفع، فلن أقدر على تحمل تلقِّي آلاف الأماني التي ستنهال عَلَيَّ وقتها". ومع الحيرة الممزوجة بارتباك ونشوة الفرح أمسك برأسه داعيًا ربه أن يُلهمهُ الصواب.

واستمر في التفكير فيما يمكن أن يقدمه لهم؛ فقد أراد أن يُعطي لكل واحد منهم ما يريده، ولكنه لم يُرِد أن يشعرهم

بالمنة، وأنه صاحب الفضل عليهم من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يتمنى تسهيل الأمر عليهم وعلى نفسه في تحقيق الأماني، فالبلد لا يوجد به إلَّا الفقر والحرمان، وظهور شيء كهذا يدعو للتريث والتدبير قبل الإفصاح عنه واستخدامه، تجنبًا للفوضى وما تُحدثه... وبعد التفكير العميق قال مبتسمًا:

"إذًا هذا هو الحل... فأين كان غائبًا عني". وبهذه الجملة حمل الكلب الصياد الذي كان يقف بجانبه ينظر إليه لاهثًا، ثم امتطى الجواد بحسن نيته، وانطلق به ناسيًا أنه لم يكن بحاجة إلى ركوبه، فكان يكفي أن يتمنى العودة إلى بلده حتى تتحقق أمنيته ويعود في الحال، ونسيَ الأرنب المُنهَك المُلقى على الأرض، الذي كان منذ ثوانٍ شيء غالٍ أدخل السعادة على قلبه، ومنحه الأمل في البقاء على قيد الحياة.

* * *

واصل الجواد السريع الركض حتى قطع المسافة ودخل البلد في وقت العصر... وحين رآه بعض الناس سألوه:

"أين كنت يا أبا الفداء؟ ومن أين أتيت بهذا الجواد؟ وما هذا الرداء العجيب الذي ترتديه؟". فقال بابتسامة وفرحة المنتصر العائد بالخير:

"لقد مَنَّ الله علينا أخيرًا بما سيحقق ما نتمناه، ويجعلنا نحيا حياة لم نكن نحلم بها".

قالوا في عجب: "كيف هذا؟ قل لنا ماذا تعني بهذا الكلام، تحدث يا رجل".

قال أبو الفداء: "علينا أولًا أن نجتمع لأقول ما أريد قوله أمام الجميع، فهيَّا اذهبوا ونادوا على الناس ليخرجوا جميعًا ونجتمع عند الهضبة السوداء، لأحكي لكم ما حدث معي، هيَّا أسرعوا، فالأمر لا يحتمل الانتظار".

قالوا بحماسة: "حسنًا، كما تريد"، ثم انتشروا ليخبروا أهل البلد بما حدث، وبالفعل تجمع الرجال في بضع دقائق عند الهضبة التي اعتلاها أبو الفداء وقال:

"أخيرًا يا إخواني قد أرسل الله لنا ما سيُبدل حياتنا، ويعتقنا من الفقر والحرمان وضنك العيش".

"وما هو هذا الشيء؟" سأل أحدهم.

"إنه رداء الأحلام، الذي يحقق أي شيء يتمناه الإنسان"، أجاب أبو الفداء بجدية وثقة جعلتهم يضحكون، وقال رجل آخر في غضب:

"هل جمعتنا لتسخر منا يا رجل؟ ماذا جرى لعقلك؟ هل جئت تسخر من حاجتنا وفقرنا فتخبرنا بأُسطورة لا يصدقها سوى الأطفال!".

تحدث أبو الفداء وهو يهز رأسه نافيًا: "أنا لا أسخر من أحد، ولم أجمعكم للمزاح، فقد عثرت على هذا الرداء الذي أرتديه وهو يحقق ما يتمناه المرء، وسأُريكم الآن أنني صادق في كلامي... هيَّا، فليتمنى أحد منكم أي شيء".

قال أحدهم: "أتمنى ناقة بدلًا من ناقتي التي ماتت"، ثم أخذ الناس ينظرون حولهم وتساءل صاحب الأمنية: "أين هي؟ أين الناقة يا أبا الفداء؟ هل سأذهب إلى المنزل لأجدها، أم ستأتي إلى هنا؟ أمْ أنك جمعتنا لتسخر منَّا كما قال الرجل؟".

أجاب أبو الفداء: "صبرًا بالله، فالأمنية تُحقق لمن يرتدي الرداء، ولذلك لا بد مِن أن أتمنى أنا، وسأقول مثلما قلت أنت. أتمنى ناقة أفضل من ناقته التي ماتت". فظهرت على الفور ناقةٌ تسُر الناظرين، جعلتهم يقولون في ذهول وقد كادت عيونهم أن تخرج من شدة التحديق: "هذا سحر".

"لا لا... هذا ليس سحرًا، إنه عَمَلٌ حقيقي؛ فتعالوا وانظروا إليها وتفحصوها جيدًا لتتأكدوا من أنها حقيقة، هيَّا اقتربوا".

أخذ الرجال يصعدون الهضبة واحدًا بعد الآخر ويتفحصون الناقة، وأبا الفداء ينظر إليهم بسرور.

وفي أثناء تفحصهم لها تحدث وابتسامته تفوق الشمس في سطوعها:

"صدقوني إنها حقيقة وليس سحرا، فلو أمعنتم النظر ستجدون أن بها جرحًا بسيطًا، وهذا يعني أنها كائن حي وليست صورة خادعة، فبالطبع الرداء لا يقدر أن يخلق روح، تلك أشياء يفعلها الله وحده... ومؤكد أن هذه الناقة كانت في إحدى الغابات أو الصحاري والرداء أَتَى بها وحسب".

فلمَّا سمع الناس هذا الكلام عقلوه جيدًا وبدئوا إصدار قوائم الأماني:

"إذًا أنا أُريد منزلًا جديدًا وحديقة بها كل الثمار"، "وأنا أيضًا أريد مثله وأريد إسطبلًا للخيول"، "وأنا أيضًا مثلهما، وأريد كل أنواع الماشية وبئر كبيرة". وظل كل واحدٍ يقول ما يريده، فقاطعهم أبو الفداء قائلا:

"يا إخواني، إنَّ الله يحب الصابرين، فكل أمانيكم ستتحقق بإذن الله، ولكني قبل عودتي إلى هنا فكرت في طريقة يحقق بها كل إنسان ما يتمناه من دون اللجوء إلي، كي يكون الأمر سهلًا للجميع".

"كيف هذا؟"، سأل رجل باستغراب فأجاب أبو الفداء:

"سأتمنى أن يحصل كل واحد منكم على رداء مثله ليحقق به ما يريد، حتى أُعْطَى الحرية لكم كي تتمنوا أنتم وأفراد أسركم ما تشاؤون، بسهولة ويُسر".

"وهل هذا سينفع؟".

"بالتأكيد، ما دام يحقق كل الأماني، ولذلك أتمنى أن يملك كل منزل في هذا البلد رداءً يحقق به ما يتمناه".

أنهىَ أبو الفداء النطق بالأمنية التي كست كل جسد من أجساد الرجال الواقفين برداءٍ مستقل، يمنحه حرية التمنِّي كما يحلو له هو وأفراد عائلته... فَعَلتْ الصيحات والكلمات المبشرات بمستقبل قريب يحوي النعيم والهناء:

"لقد تحققت الأمنية، لقد تحققت الأمنية، أخيرًا سنعيش في رغدٍ بعد حياة الفقر والجوع".

ابتسم أبو الفداء وقال بصوتٍ عالٍ وهو يحاول تجاوز أصوات الأفراح التي صارت تهز الأرض:

"نعم، وهذا من فضل الله، فهيَّا اذهبوا وبشروا أسركم وحققوا لهم أمانيهم، وأنا أيضًا سأذهب إلى بيتي كي أُبَشرهُم".

وبنشوة الفرح الذي لا يُصدقه عقل ولا يستوعبه قلب، واصل الحاضرون صعود الهضبة لمصافحة أبي الفداء واحتضانه، وشُكره على ما قدمه لهم، حتى أستأذنهم ومشى متجهًا إلى بيته، وهم أيضًا أسرعوا إلى بيوتهم مُتَمَنِّينَ أَلَّا يقبض الله

أرواحهم، قبل التمتع بالرداء ونعيمه الذي بدا أنه لا حدود له، وعندما وصل واستقبله أفراد أسرته الصغيرة، جعلهم الشوق إلى النعيم ينهالون عليه بالأسئلة التي لا داعي لها:

"هل سنصبح أغنياء؟ نأكل اللحوم ونركب الخيل؟ وهل سيكون لدينا بيت جميل؟ وحدائق بها كل أنواع الفاكهة؟".

أجابهم بوجه مشرق ونبرة واثقة: "نعم، إن شاء الله سيكون لدينا كل هذا". فأخذوا يغنون ويرقصون، أمَّا هو فدخل غرفته ليستريح من التعب الذي تراكم عليه خلال رحلته الطويلة، وأخذه النعاس في رحلة من النوم شديد العمق امتدت لساعات... حتى جاءت زوجته توقظهُ وهي تقول:

"يا أبا الفداء استيقظ، هذا ليس وقت النوم، هيَّا استيقظ وانظر ماذا جرىَ".

فتح عيناه بصعوبة وسألها بخوف: "ماذا جرى؟".

قالت بابتسامة: "لا تقلق، إنه ليس بالشيء اَلسَّيِّئِ".

قال بعجلة: "إذًا تكلمي، أخبريني بما حدث".

أمسكت يده اليمنى وجعلته ينهض ويسير معها وهي تقول: "تعال معي وأنت ترى بنفسك"، حتى وصلا إلى الباب، ولـمَّا فتحته رأى الشيء الذي أذهله.

فقد وجد البلد تحول وكأنه بلد آخر... فالبيوت تبدَّلت والحدائق والبساتين قد أُنْشأت وامتدت خارج النطاق الذي كانوا يعيشون عليه، لتمحو منظر الصحراء الخالية.

أصوات الطيور والحيوانات التي بداخل المزارع أضحت تعلو، بعد أن كانت أصوات الكلاب والذباب لا يعلو عليها شيء، وصار بيت أبي الفداء بين البيوت لا يُرى؛ حتى أن الشمس قد حُجبت عنه بظلال الأبنية العالية التي بُنِيت، لتجعلهُ مثل الزهرة الذابلة في بستان النخيل العالي، فقال وهو لا يكاد يصدق عينيه:

"ما هذا! هل نمت لساعات أم شهور؟ متى حدث كل هذا؟!. هل ما زلنا على الأرض نفسها، أَمْ أن أحدهم تمنى نقلنا إلى أرض أخرى؟!".

"الناس كانت في ضيق شديد"، قالت زوجته فاطمة الناظرة بابتسامة وعينين لامعتين، فتحدث وهو ما زال يشعر أنه يحلم من تأثير ما يراه في قلبه: "والآن جاء وقت الفرج الشديد".

"نعم، ولم يبق سوى بيت أبي الفداء وأفراد أُسرته المسكينة ما زالوا على حالهم... ألم يحن الوقت لأحلامنا أن تتحقق أم ماذا؟!"، قالت الزوجة مازحةً فنظر إليها وقال مبتسمًا:

"بالطبع قد حان، هيَّا بنا نجلس سَوِيًّا وكل منَّا يقول ما يتمناه كي يحدث توافق بيننا"، قال أبو الفداء ثم دخل البيت هو وزوجته وجلسا سويًّا مع ابنهما وابنتهما، ثم تحدث وهو ينظر لابنه: "هيَّا يا حسن أخبرني، ماذا تتمنى؟".

"أتمنى بيتًا كبيرًا ويكون حوله حديقة كبيرة ألهو فيها، ويكون لدينا إسطبل للخيل حتى أركبها وأجري بها في الحدائق الواسعة".

"حسنًا، كما تشاء، وأنتِ يا سلمى ماذا تتمنين؟".

"أريد حديقة مليئة بالطيور الجميلة ذات الأصوات العذبة".

فتحدثت زوجته قبل أن يسألها:

"أمَّا أنا فأتمنى أن يكون لدينا مزرعة نأكل من زرعها الخضروات والفواكه الطازجة، وأيضًا مزرعة للطيور... وبالطبع أخرى للماشية، ولا تنسى الشيء الأهم وهو بئر كبيرة لا يجف ماؤها". فقال: "حسنًا، كما تشائين"، فسألته: "وأنت، ألن تطلب أي شيء؟".

"بعد الذي تمنيتموه ماذا سأطلب أنا يا ترى!؟".

"معك حق، ولكنك ربما تجد أنك محتاج لشيء في المستقبل لا يحضرك الآن".

"نعم نعم، كلامك صحيح... المهم أن نبدأ وحسب".
وبالفعل تمنَّى أبو الفداء كل ما تَمَنَّوْهُ وصار لديهم في حينهِ... وأصبح البلد بأكمله هكذا؛ بلدٌ كل أهله منعمين بالخير، بعد الجوع والحرمان والبؤس الشديد.

* * *

استمر هذا الحال لشهر واحد، والناس يعيشون في وئام وسعادة بالغة، حتى جاءت ليلة كان فيها أبو الفداء جالسًا

على مقعدٍ في حديقة منزله، وقد كان الهواء منعش ونقي، فأغمض عيناه يتأمل، فإذا بزوجته تأتي وتقول مبتسمة:

"ما الذي يشغل بالك؟".

فتح عيناه ونظر إليها وقال بابتسامة خفيفة: "اجلسي أَوَّلاً وسأقول لكِ".

جلست فاطمة وقالت: "ما الذي يشغل بالك هذه الأيام؟ أشعر أن هناك أمرًا مَا يُرهق عقلك ويجعلك شارد الذهن".

قال أبو الفداء:

"أُريد أن أسألك عن شيء".

"كُلِّي آذانٌ مُصغية"، قالت فاطمة فأكمل أبو الفداء:

"أنا أعلم أن لكل بداية نهاية، ولكل حكاية بداية ونهاية، والناس دومًا يَتَمَنَّوْنَ النهايات السعيدة، التي تتركهم فرحين، وكلما تأملت فيما حدث في هذا البلد أسأل نفسي سؤالًا واحدًا، هل ما نعيشه هو النهاية السعيدة لمعاناة الناس التي استمرت لسنوات، أم أنه بداية لقصة لم نصل لنهايتها بعد؟".

أخذت فاطمة تفكر في الكلمات لثوانٍ ثم تحدثت:

"البداية والنهاية هي لأحداث حدثت بينهما، فقصة المعاناة التي تتحدث عنها، انتهت بنعيم وسعادة مع ظهور الرداء، فإن استمر الحال كما هو، ستكون هي نهاية للقصة فقط".

ارتعب قلب أبو الفداء وقال: "هذا يعني أنه لو حدثت أشياء مغايرة تكسر واقع هذه النهاية، ستجعل النهاية بداية لقصة جديدة، ولا أحد يعرف هل نهايتها ستكون سعيدة أم لا".

أومأت فاطمة برأسها بالموافقة وهي تقول: "نعم، هذا ما قصدته بالضبط".

"ولكن هل يمكن التنبؤ بما سيحدث، أو السيطرة على الوضع لتجنب أي أحداث سيئة؟".

"أي أحداث سيئة تخفيك؟ أخبرني".

"في الحقيقة لا أستطيع تحديد ما يُخيفني بوضوح، ولكني أشعر بقلق من الأيام القادمة".

"ولكنَّ شهرٌ قد مرَّ ولم يحدث أي شيء يُقلق، عليك أن تتفاءل بالقادم وحسب، لا تُرهق تفكيرك بما يجلب لك الهموم، فهو مجرد وهم".

نظر أبو الفداء إليها مبتسمًا ثم قال: "أتمنى هذا".

قالت مازحة: "يا أبا الفداء يا زوجي العزيز، لا تبالغ في التفكير، فلم يتجاوز عمرك الأربعين وتعيش حياة زاهدة، عليك أن تستمتع بالرداء وقدرته كما يفعل الآخرون، وأنا لدي أُمنية يمكن أن تعطيك إحساسًا مختلفًا بالحياة، ولكن لا أعلم ما إذا كانت قوة الرداء كافية لتحقيقها أم لا".

نظر إليها وسأل بترقب: "أي أمنية؟".

أجابت بخجل: "أنت تعرف أننا لم نرَ بحرًا من قبل، يا ترى هل يمكن أن نتمنى الحصول على بحر بقوة الرداء؟ ويكون قريب من هنا، لنذهب إليه بيسر ونستمتع بمائه كُلما رغبنا".

بهذه الأمنية الغريبة ارتعب قلبه للمرة الثانية وقال في ذهول: "بحر؟!"، فقالت في دهشة: "لماذا يبدو الخوف عليك هكذا؟

إن كنت تخشى البحر، يمكننا تمني بحيرة صغيرة وحسب، كل ما أردته هو تجربة ذلك الشعور".

استمر أبو الفداء صامتًا لثوانٍ يفكر ثم قال: "لم أشعر بالخوف من البحر كما ظننتِ، ولكن هذه الأمنية أظهرت بُعدًا آخر يفوق الحاجات الأساسية للعيش، ومغالاة في التمني، وثقة عمياء بقدرة الرداء، فأنتِ حتى لم تتمني الذهاب إلى حيث وجود البحر، ولكنكِ تمنيتِ أن يأتي البحر إليكِ، وهذا بالضبط ما يشغل بالي ويهمني منذ أيام".

تأملت لثوانٍ ثم قالت: "ليس لدي الشعور نفسه الذي تشعر به، ولكن أتمنى من الله أن يجعل شعورك السيئ يخيب".

ابتسم وقال: "وهذا أيضًا ما أتمناه".

واستمر الحديث بين أبو الفداء وزوجته حتى اشتدت برودة الطقس، فقاما ودخلا بيتهما، وفي الصباح كان جالسًا في غرفته يقرأ أحد الكتب، فأتت إليه تخبره بأن رجل قد أتى ويبدو أن هناك أمرًا ما حدث له، فذهب ليرى ماذا يريد الضيف، وحين دخل الغرفة الجالس فيها، وجد أنه رجل يُدعى نعمان.

ونعمان هو أحد التجار الذين كان يشترى منهم البضائع مِن قبل، وكان بينهما معرفة قوية تقترب من الصداقة، فرحب به ثم سأله عن سبب الحزن والخوف البادِيين على وجهه... فتحدث الرجل بنبرة بائسة: "أنجدني يا أبا الفداء، ابني سيموت".

قال أبو الفداء في دهشة: "لمَ تقول هذا؟ أخبرني بما حدث".

"لقد أُصيب بمرض غريب جعل حرارته ترتفع، حتى صار رأسه كالجمر، وحالته تسوء يومًا بعد يوم، فهو لم يأكل منذ يومين ولا نعرف ماذا نفعل... فقد تمنيت الحصول على دواء لذلك المرض، وبالفعل حصلت على زجاجة الدواء في الحال، ولكن حين أعطيته منه لم يتحسن أو يظهر أي استجابة ولو طفيفة، ولهذا أتيت إليك لأسألك لمَ حدث هذا، أريد أن أعرف لماذا لم ينفع الدواء!".

فكَّر أبو الفداء لثوانٍ ثم قال: "في الحقيقة لا أعرف ماذا أقول لك، ولكن لماذا لم تستدع طَبِيبًا؟ لماذا تتمنى الدواء من الرداء قبل حضور الطبيب؟".

تحدث نعمان بنبرة تحمل قليل من الغضب:

"يا أخي، ماذا سيفعل أمهر الأطباء أمام قوة الرداء؟ فما دام الدواء الذي أتى منه لم ينفع، فهل سينفع الطبيب!".

بهذا الرد المنفعل حَوَّل أبا الفداء رأسه ناحية اليمين، ثم إلى اليسار، ثم إلى الأسفل، ثم نظر إلى نعمان وهو ما زال في حيرة وأخبره أنه سيذهب معه ليراه بنفسه.

رحَّب نعمان وذهب الاثنان إلى المنزل حيث يوجد الطفل المريض، وحين دخلا غرفته، نظر إليه أبو الفداء وأشفق على مظهره الذي كان يرثى له، وسأله عن حاله؛ فنظر إليه الصبي ولم يقل شيئا، وكان أبو الفداء يسمع صوت بكاء أُمه ويشعر بالرعب من أن تكون زيارته هذه غير مجدية، فطلب من نعمان إعطاءه زجاجة الدواء التي تمناها وأُحضرت بقوة الرداء.

ذهب نعمان مسرعًا ثم عاد ومعه زجاجة الدواء وأعطاها لأبي الفداء، الذي أمسكها ووضع قليل منه بإحدى الملاعق، ثم رفع رأس الصبي من على الوسادة وجعله يتجرعه وهو يقول: "هيَّا يا بُني، تناول الدواء بسم الله"، فتجرع الصبي الدواء ثم وضع رأسه على الوسادة من جديد... وقال أبو الفداء وهو

يُحدِّث نعمان: "لا تقلق، وقل لأمه أن تهدأ، فهذا فأل سيئ عليه، إن شاء الله سيشفى من مرضه قريبا".

قال نعمان ذو القلب المفطور: "أتمنَّى هذا، فأنت تعرف أنه ابني الوحيد، الذي جاء بعد عشر سنوات من الانتظار، فلا أحد يشعر بخوفنا عليه أنا وأمه، فلو حدث له أي مكروه سوف نموت بالتأكيد".

وضع أبو الفداء يده اليمنى عَلَى كتفه وهو يقول: "إن شاء الله ستطمئن عليه، والآن سأذهب أنا، وأريدك أن تُبلغني بحالته في أقرب وقت".

"بالطبع سأفعل، المهم أن يتعافى من مرضه... ولكن يا رجل لمَ تغادر هكذا سريعًا، ابقَ معي لنتحدث؛ فنحن لم نجلس ونتحدث سويًّا منذ فترة طويلة".

قال أبو الفداء بابتسامة حزن: "حين يكون الظرف أفضل من هذا، سنجلس معًا ونتحدث".

"حسنًا، كما تريد"، قالها نعمان ثم تحرك معه وأوصله إلى الباب، فخرج ومشى قاصدًا بيته... ومرَّ يومان بعد ذلك

اليوم، وفي عصر اليوم الثالث سمع أبو الفداء أحدًا يطرق باب منزله، فذهب ليرى من يكون وحين فتحه، وجد نعمان الذي ارتمى على يده محاولًا تقبيلها وهو يقول: "أيها الرجل الطاهر الفاضل".

سأل أبو الفداء بابتسامة خجل: "ماذا حدث يا أخي؟".

أجاب نعمان بوجهٍ مبتهجٍ سعيد: "انظر هناك وأنت تعرف ما حدث".

نظر أبو الفداء إلى المكان الذي أشار إليه نعمان، فإذا به يرى ابنه الذي كان مريضًا يقف ويبدو أنه تعافى، فقال بسرور:

"حمدًا لله على سلامته، هيَّا اجعله يأتِ... لمَ يقف بعيدًا هكذا، هيَّا اجعله يأتِ كي نأكل ونشرب احتفالًا بسلامته".

"لا، فهذا الواجب علينا نحن، أرجوك لا تعتذر بأي شيء، فزوجتي تنتظركم... هيَّا قُل لزوجتك وأولادك ولا تتأخر، فنحن سنحتفل بسلامته ولن يكون هناك احتفالًا من دونك، فأنت من أنقذ حياته وكان في يدك الشفاء".

"لا تقول هذا الكلام يا رجل، فالشفاء بيد الله وحده".

"نعم صدقت"، قالها نعمان ثم تساءل متعجبًا:

"ولكن لمَ يا ترى لم ينفع الدواء إلَّا عندما أتيت؟ هل هذا مرتبط بأنك من حصل على الرداء؟ هل قوة الشفاء لا تحدي نفعًا إلا مع من حصل عليه أولًا؟!".

أجاب أبو الفداء وهو يومئ برأسه رافضًا: "بالطبع لا... الأمر متعلق بأن الرداء مهما كانت قوته فهو ليس له صفات الإله، فهو يجلب دواء نعم ولكن لا يشفي، وأنا عندما قلت بسم الله... أتمَّ الله شفاء ولدك، ومؤكد أن الدواء لم يُجدِ نفعًا من قبل لأنك كنت تعتمد عليه ناسيًا قدرة الله".

تأمل نعمان في كلامه لثوانٍ ثم ابتسم بخجلٍ وقال: "معك حق، وفي الحقيقة كلما أسمع كلامك أشعر أنك كنت الأحق بالحصول على ذلك الرداء من بيننا... فأنت أحكم من فينا والأكثر هدى وتُقى، يا ليت ابني يصير مثلك حين يكبر".

"إن شاء الله سيكون أفضل مني".

"إن شاء الله... والآن سوف أذهب ولكننا ننتظرك أنت وأسرتك، فلا تتأخر، وإن لم تأتِ، سنُلغي الاحتفال".

"لا تقلق سوف نأتي بإذن الله". وبهذه الموافقة صافح نعمان يد أبي الفداء بسرور ثم استأذن وذهب إلى منزله... ولبَّى أبو الفداء الدعوة، فقد ذهب هو وأسرته إِلَى بيت نعمان في المساء، واحتفلوا بسلامة ابنه، وكان وقتًا مبهجًا للجميع.

وبينما كان أبو الفداء يسير مع أفراد أسرته عائدون إلى البيت بعد ليلة الاحتفال السعيدة، مرُّوا بالقرب من بيت وسمعوا أصواتًا غريبة تصدر من داخله، جعلتهم يتساءلون عن طبيعة تلك الأصوات، التي لم تسمع آذانهم أيًّا منها من قبل، ودفعهم الفضول إلى السير نحو مصدر الصوت، حتى تقابلوا مع صبي بعمر الخامسة عشر، فحدَّثه أبو الفداء قائلًا: "كيف حالك يا هاشم؟".

قال هاشم: "أهلًا بك عمي أبي الفداء، تفضل بالدخول... فأبي سيفرح بزيارتك".

ابتسم أبو الفداء وقال: "شكرًا لك، كيف حال والدك؟".

"بخير، وهو مشغول هذه الأيام بالحيوانات التي أحضرها"، قال الصبي، فسأل أبو الفداء في دهشة: "هل تقصد الحيوانات التي تصدر هذه الأصوات العالية؟".

"نعم صحيح، فأبي قد أحضر حيوانات لم نرها من قبل، فالآن لدينا أسود ونمور وزرافات وفيلة، وهو يفكر في جلب المزيد ولكن أُمي تعترض، فهي تكره أصوات الحيوانات، ولهذا أخبرته أن يتمنَّى نقلها إلى مكان بعيد عن هنا حتى تشعر بالهدوء".

وبهذه الكلمات استمر أبو الفداء ينظر إلى الصبي في ذهول، بينما تحدث ابنه وابنته في فرح:

"أبي نريد أن نرى الفيل والزرافة أرجوك".

نظر إليهما وقال بصوت خفيت: "حسنًا، سوف ندخل لنراهم ولكن ليس الآن". ثم ما إن ابتعد هو وأُسرته عن بيت الحيوانات حتى قالت زوجته:

"إنه لشيء جميل أن تجلب حيوانات جديدة، ما الذي يزعجك هكذا؟".

نظر إليها وقال بابتسامة تخفي حقيقة ما يشعر به: "لا... لا شيء، أنا بخير".

* * *

ومرَّ الوقت حتى انقضى أسبوعًا آخر من السعادة الغامرة والوئام والانسجام التام، فلم يكن هناك أي تغيرات تُذكر في الأصوات أو الأشكال أو الروائح، التي كانت هي الأخرى إحدى علامات عصر الرداء، فمنذ ظهوره وقد بدأت تفوح عديد من الروائح الغريبة، منها ما كانت منعشة طيبة ومنها ما كانت مُنفِّرة كريهة، وفي صباح اليوم الأول من الأسبوع التالي كان سالم جالسًا هو وأخوه الصغير شاهين في حديقة قصره، فقال شاهين بوجهٍ عابس:

"ما هذا الحال السيئ الذي نعيشه في هذا البلد، الأمر لم يعد يُحتمل".

قال سالم بدهشة: "الحال السيئ! هل تمزح أم تتكلم بِجد؟".

أجاب شاهين بصرامة: "لا، لا أمزح... أنا أتكلم بِجد".

قال سالم وهو ما زال مستغربًا ولا يفهم لمَ يقول أخوه هذا الكلام:

"في هذا النعيم الذي نتمتع به تقول إن الحال سَيِّئٌ، إن كان هذا سَيِّئًا، إذًا كيف كان من قبل؟!".

"يا أخي أنا لا أتحدث عن الطعام والشراب، والخيل والذهب الفضة التي صارت يسيرة كالهواء، أنا أتحدث عمَّا لا يراه الناس، وهو الأمر الذي سيعرفون خطورته فيما بعد".

"وضح كلامك أكثر، فأنا لا أفهم ما تعنيه"، قال سالم فتحدث شاهين وهو يشير بيده ناحية الخارج:

"أنا أقصد هذا البلد الذي لا يحكمه أحد، وكل إنسان منفصل وكأن بيته هو بلده... يجب أن نُوحد الناس تحت إمرةِ رجل واحد، فهذا العبث الذي نحن فيه لا يجب تجاهله أبدا".

فكَّر سالم قليلًا ثم قال: "وما فائدة هذا؟! فنحن نعيش هُنا كأخوة، لماذا نضع فوق رؤوسنا من يتحكم فينا؟! أنا أرى أنَّ حالنا الآن أفضل بكثير".

"ولكن هذا الوضع خطير يا أخي، فلو أنَّ غزاة جاءوا وهاجمونا، فسيُقضى علينا ما دمنا مشتتين وكل منَّا له رأيه، لا بد من التوحد تحت رأي قائد يقودنا ويدير شؤوننا".

ابتسم سالم ساخرًا وقال: "غزاة! ... ومن سيقدر على هزيمتنا وكل بيت معه رداء الأحلام، الذي إن ارتداه وتمنَّى، قضى به على أي عدو".

قال شاهين وهو يشير بإصبعه ناحية أخيه:

"هنا تكمن الخطورة يا أخي".

"لا أفهم... ماذا تقصد بكلامك؟" قال سالم فأكمل شاهين:

"تخيل معي لو استطاع غريبًا سلب رداء من أي بيت، مِن دون شك سيقضي على أي رِدَاءٍ آخر ويصبح هو وحده من يملكه، ويقضي علينا جميعًا أو يجعلنا عبيدًا له... فنحن لدينا الرداء ولكن لم نصبح آلهة، وأعيننا تغفل، والناس هنا يبدو أن النعيم قد سلب عقولهم... ولا يفكرون في أمر خطير كهذا".

لمَّا سمع سالم كلام أخيه أخذ يفكر فيه بعمق، ثم قال بعد التعمق والتخيل: "هذا صحيح، فالأمر يبدو خطيرا".

"أرأيت، ولذلك يجب فعل شيء يحمي هذا البلد من العبث... ونحافظ به على أملاكنا".

"وما هو هذا الشيء الذي يمكن أن نفعله من وجهة نظرك؟".

سأل سالم فتحدث شاهين بحذر وهو يتلفت يَمِينًا وَيَسَارًا، وكأنه يخشى أن تسمعه الأشجار والزهور التي كانت تحاوطه:

"يجب أن ترتدي الرداء وتتمنى أن يختفي أي رداء آخر، حتى تحافظ على هذه القوة الخارقة من العابثين فاقدي العقل... وبعدها يجب أن تكون حاكمًا لهذا البلد، فأنت الأكبر سِنًّا والأعلى مقاما... وبهذا سنحافظ على الرداء وعلى البلد بأكمله".

استمر سالم ينظر إلى أخيه لثوانٍ وقال وهو يشعر بالقلق: "ولكن إن علم الناس أنني من فعل هذا، ماذا سيكون عملهم؟".

قال شاهين مُبْتَسِمًا: "ومن سيخبرهم؟! فأنت بعد أن تتمنى ستختفي الأردية، وسيظن الجميع أن مدته انتهت أو أي شيء آخر... ما دام اختفى من عند الكل في الوقت نفسه، فلا يوجد من يملك الذكاء الكافي الذي يجعله يصل لحقيقة ما سيحدث".

تساءل سالم وهو ما زال في حيرة وتشتت: "ولكن لماذا نحرم الناس من شيء يحقق لهم أحلامهم؟ أليس هذا ظلمًا لهم؟"

قال شاهين مُسْتَنْكِرًا:

"أي أحلام تلك التي تتحدث عنها!؟ ... يا أخي انظر حولك، فكل منهم صار لديه أكثر مما كان يراه في أحلامه البائسة، ومؤكد أنهم لن يفتقدوه؛ فهو أصبح معدوم الفائدة بالنسبة لهم... فماذا سيفعلون أكثر مما فعلوه! ألم ترَ أن كل رجل منهم صار كالملك المتوج... وصار لديه من البساتين والمزارع والطيور والحيوانات والآبار ما يكفيه لمائة عام... والآن وبعد كل هذا سيصبح مبعث شر، ويجب حفظه حتى لا يُستخدم بصورة خاطئة، وإن كنت لا تصدقني، يمكنك الذهاب إلى الخارج لترى ما تمناه بعض المخابيل هنا، هناك

فوضى أحلام يجب القضاء عليها قبل أن تقضي على هذا البلد بمن فيه".

"وماذا عن أبي الفداء؟"

سأل سالم فسأل شاهين باستغراب: "ما به؟".

"يجب أن نضع ذلك الرجل في الحسبان، ربما يكشف أمرنا".

ابتسم شاهين وقال بهدوء: "أبو الفداء رجلٌ طيب يفكر بعواطفه... نعم ما فعله حين أعطى رداء لكل بيت كان شيئًا حسنًا، ولكنه لم يفكر في المستقبل ولم يتخيل خطورة ما حدث، المكان الأنسب له هو جامع يتولى مسؤوليته، ألا تراه كيف يذكر الله في كلامه ويحافظ على صلواته، ولـمَّا يتحدث، يتحدث بالحكمة والموعظة الحسنة، وكأنه واعظ يخطب في مجلس ديني، لا شأن لرجل كهذا بالتفكير في مثل هذه الأمور، فلا تُشغل بالك به ولا تخشى منه... فهو مثله مثل أي إنسان يحيا هنا، سيسمع الخبر ويُسلم بالأمر الواقع وحسب".

فكَّر سالم وتأمل فيما قاله شاهين، حتى شعر أن الكلام أعجبه وأقنعه فقال: "نعم معك حق، ولكن متى سنقوم بهذا العمل؟".

"في الليل والناس نيام، حتى يقوموا من نومهم فلا يجدونه، فيظنون أنه اختفى كما جاء".

أومأ سالم برأسه مخبرًا شاهين بالموافقة على المُضي قُدمًا في هذا الطريق... وفي وقت متأخر من الليل ارتدى الرداء وتمنَّى ألَّا يبقى أحد يملك الرداء سواه... فتحققت أمنيته على الفور.

* * *

انقضى الليل وفي الصباح وجد الناس أحدًا يصيح معلنًا ضياع ردائه، وخلال وقت قصير ظهر آخر ثم لحقه آخرون، ولـمَّا عمَّ الخبر، ذهب الناس إلى حيث مكان حفظ الرداء ليطمئنوا على وجوده، ولكنهم ذهبوا وعادوا بالحسرة، وأخذ كل واحد يقول لقد اختفى الرداء حتى تأكدوا من اختفاء الأردية من كل بيوت البلد، فاقترح أحدهم الذهاب إلى بيت أبي الفداء

وإخباره بما جرى، على أمل في إيجاد تفسير وحل، وحين وصلوا وصاروا واقفين أمامه مُتَجَمْهِرِين، قالوا:

"لقد اختفت جميع أرديتنا ونريدك أن تعيدها إلينا".

قال أبو الفداء في حزن: "مع الأسف لقد اختفى ردائي أنا أيضًا".

تساءلوا في دهشة: "كيف حدث هذا؟ أين ذهبت جميع الأردية في وقت واحد؟".

قال أبو الفداء في حيرة: "في الحقيقة لا أعرف... ربما كان له مدة وانتهت"، فتحدث سالم الذي كان يقف بين الناس متظاهرًا بفقد ردائه:

"يا إخواني ما حدث هو إنذارٌ لنا، يُحتم علينا تغيير طريقة حياتنا".

نظروا إليه وسألوه بِتَجَهُّمٍ: "ماذا تعني بكلامك هذا؟"

أجاب سالم بثقة وصوت عالٍ وكأنه يُلقى خطبة:

"في الماضي لم نكن نخاف من الأعداء واللصوص لأننا كنا فقراء، ولم يكن لدينا ما نخاف عليه... أمَّا الآن فقد صار لدينا ما نخشى عليه، وليس لدينا رداء يمكن أن نستخدمه للحماية وصد العدوان، ولهذا وجب علينا توحيد بلدنا ليكون على كلمة رجل واحد، كي لا نتشتت ونُضيِّع كل ما لدينا، ونعود كما كنا فقراء بائسين".

سأل الناس: "وكيف سنفعل هذا؟" فأجاب سالم:

"يجب أن يكون لدينا حاكم يُدبر أمر هذا البلد ويكون لديه الكلمة الحسم في شؤونه... ونجعل منَّا فرسانًا شجعانًا يقومون بحماية البلد من المعتدين، وبهذا سنحفظ أنفسنا وأملاكنا التي إن ذهبت لن تعود من جديد".

سأل أبو الفداء الذي دُهِشَ من ردة فعل سالم وتفكيره السريع في أمر كهذا، بينما الكل ما زال يعيش فاجعة فقْده للرداء:

"ومن سيكون هذا الرجل الذي تريده أن يتولى أمر هذا البلد؟".

"سنجد طريقة بها نعرف من الأحق، ولكن المهم أن نتفق"، أجاب سالم فتحدث أحد الرجال:

"يا أخي هذا ليس وقته، يجب أن نجد حلًّا لأمر الرداء أولا"، وقال آخر مثله "نعم، لا داعي لهذا الكلام الآن". وصدَّق الجميع على كلامهما قائلين "نعم لا نريد أن نتحدث في هذا الأمر الآن"، فشعر سالم بالخيبة وقال: "حسنًا، معكم حق يا إخواني، هذا ليس الوقت المناسب".

وبعد أن استمر الحديث لساعات، عاد الناس بالحزن إلى بيوتهم مع فقدانهم الأمل في استعادة الرداء... أمَّا سالم حين اِنفردَ بأخيه قال له وهو مهموم وحيران:

"ماذا سنفعل؟ الناس لا تهتم بأمر الحاكم هذا، يبدو أن الأمر لن يكون بالسهولة التي توقعناها، ماذا سنفعل الآن؟ هيَّا أخبرني".

تحدث شاهين الذي لم يعجبه ما فعله سالم، وكيف أنه أبدىَ ما بداخله بشكل يثير الريبة:

"يا أخي لقد تسرعت فيما فعلته اليوم... ما كان يجب عليك أن تقول ذلك الكلام في ذلك الوقت".

تساءل سالم بقلق: "وما العمل إذًا؟ هل سنتراجع عن خطتنا ونُعيد الأردية لهم؟".

ابتسم شاهين الذي كان وجهه ملوثًا بالخبث وقال: "بالطبع لا... ليس لهذه الدرجة".

"إذًا ماذا سنفعل؟".

"لا تقلق، فأنا سأجعلهم يوافقون على كلامك بكل ترحيب، وستسمع منهم الثناء بدلًا من الاعتراض والامتعاض".

"كيف سنفعل هذا؟ هل لديك خطة؟".

"بالتأكيد لدي خطة... فبعد ثلاثة أيام ستُسرق بعض البيوت هنا، وحين يعلمون بهذا، سترى ما سيحدث".

قال سالم مبتسمًا: "هذه فكرة جيدة، ولكن لماذا بعد ثلاثة أيام، لمَ لا يكون في الغد؟".

"يا أخي لا تكن متهورًا كي لا ينكشف أمرك، يجب أن نجعل الأمر يبدو طَبِيعِيًّا... فخطتي كانت أن يحدث هذا أَوَّلاً ثم تقترح عليهم اقتراح الحاكم، ولكنك سبَّقت وأخرجت ما بداخلك سَرِيعًا ... والآن تريد أن يحدث هذا في الغد حتى تثير الشكوك أكثر، يجب أن نكون أكثر حرصًا وحذرا".

أومأ سالم برأسه موافقًا وهو يقول: "نعم معك حق"، ثم ابتسم وأكمل: "ولكنك أيها الداهية كنت تخطط لهذا من قبل... فكمْ مرة سألتك عن سبب كثرة الجنود الذين استدعيتهم وأنت تقول للتأمين والحماية".

"حتى تعرف كمْ أحبك وكيف أخطط لك التخطيط السليم، فلو كنا فعلنا هذا بعد القضاء على أرديتهم لارتابوا، ولكانت الشكوك لاحقتنا أكثر، ولكن حين يفقدون ممتلكاتهم، هم من سيركضون وراءنا آملون في نيل حمايتنا، فنحن لدينا الجند والعتاد ونحن الأجدر من أي أحد منهم".

"نعم نعم، معك حق، فلنفعلها إذًا وأتمنى أن يكون التوفيق حليفنا".

* * *

ومرَّ الوقت حتى انقضت المدة المتفق عليها وهي الثلاثة أيام، وفي ليلة اليوم الرابع تمنَّى سالم أن تختفي بعض الممتلكات من بعض المنازل لتبدو وكأنها سُرقت بفعل لصوص، وبعد أن حدث ما حدث ظل المسروقين يندبون حظهم، والناس ينظرون إليهم بشفقة ويواسونهم؛ وأبو الفداء الريبة تزداد بداخله أكثر من ناحية سالم وأخوه شاهين، وقد اقترب شكه من اليقين حين علم أنَّ الأشياء التي سُرقت تضم مواشي كبيرة الحجم، وشوالات تزن أطنان من المحاصيل، والتي يصعب على أي لص سرقتها بهذه السهولة وفي ليلة واحدة دون أن يشعر أحد؛ وفي تلك الأثناء قال سالم الذي كان أحد الواقفين حول من سُرِقوا:

"ألم أقل لكم يجب أن نوحد قوتنا كي نحافظ على أملاكنا من الأعداء، ها نحن الآن وقعنا فيما كنت أخشاه... وإن بقينا على حالنا هذا سيضيع كل مالنا، ونعود من جديد لما كنا عليه من فقر وجوع وذل".

سأله أبا الفداء وهو ينظر في عينيه بريب: "ألا تظن أن ما حدث غريبا جدا؟"

قال سالم بعد أن شعر ببعض الارتباك: "ماذا تعني بأن الأمر غريبا؟"

قال أبو الفداء: "أن يحدث ما حذرت منه بهذه السرعة وكأنها خطة مدبرة"

كلمات جعلت سالم على وشك الانهيار ولكن النجدة أتت من حيث لا يحتسب، فبدلا من دعم الناس لقول أبو الفداء وتصويب سهام الشك إلى سالم، قال أحد الواقفون: "يا أبا الفداء هذا ليس مهما الآن، المهم أن نعرف ماذا علينا أن نفعل حتى لا تتكرر تلك الفعلة، لقد دخل البلد كثير من الأغراب في فترة الرداء، ومؤكد أن أحدهم من دبر تلك السرقة".

انتهى الرجل من إخراج الكلمات المنقذات التي أعادت الروح إلى سالم وجعلت أبو الفداء الممتعض يتوجه بالسؤال إلى سالم:

"وماذا تريدنا أن نفعل يا سيد سالم؟".

أجاب سالم بنفس طاقة ونبرة التمثيل التي سبقت السؤال: "كما قلت لكم من قبل، يجب أن نختار من يحكمنا ويكون له الكلمة الحسم في أمر هذا البلد، ويكون لدينا من يحافظ على أمننا ويحمينا من الأعداء".

"ومن ترشح أن يتولى هذا الأمر؟"

"يجب أن نختاره من أكبر الرجال فينا وهم أبو هشام، صالح، بكر وأنا".

"وكيف سنعرف من يصلح منكم؟".

سأل أبو الفداء فقال سالم طريقته التي أملاها عليه أخاه شاهين:

"فلنجعل كل رجل يكتب اسم من يريده في ورقة مطوية، ويأتي ويضعها على طاولة، وأنت تقوم بفتح الأوراق، ومن يحصل على أغلبية الآراء يتولى أمر البلد".

ولـمَّا سمع الناس هذه الفكرة المبتكرة قالوا: "نِعم الرأي هذا والله"، أمَّا أبو الفداء لم يعرف ماذا يقول، فاستسلم بعدما عجز عن الاعتراض، ووافق مجبرًا دون مناقشة.

* * *

بعد عصر ذلك اليوم تم إخبار الكل، واتُفقَ على أن يأتي كل واحد ومعه الورقة التي تحمل اسم من اختاره... وفي الوقت المتفق عليه حضر الجميع ووضعوا الأوراق على الطاولة وكان عددهم ألف ورقة، وهو عدد الرجال الذين مُنِحوا الحق في التصويت. ثم بدأ أبو الفداء فتح الأوراق ليرى من سيكون الرجل المُختار... وحين فتح الورقة التي تخصه والتي علَّمها بعلامة مميزة لكي يعرفها، وجد الشيء الذي قضى على شكه وجعله يتيقن من أن سالم هو من دبَّر كل هذا.

فلقد وجد الورقة التي كتب فيها اسم من اختاره تحمل اسم سالم، فعرف أنه ما زال يملك الرداء وهو من جعل الأسماء تتبدل لصالحه؛ وقد اكتملت اللعبة حين فتح ما تبقَّى وحصل سالم على أغلبية الآراء وتولى الحكم، كأول ملك وحاكم لبلد لم يُطلق عليه اسمًا بعد.

* * *

يومًا بعد يوم وسالم يُقوِّي نفوذه وقبضته على كل شيء، وأبو الفداء ما زال يفكر مهمومًا فيما يمكن أن يفعله لاستعادة الرداء المغتصب، ومعاقبة سالم على فعلتهِ... وذات صباح كان جالسًا في منزله فسمع طرقًا على الباب، فتحرك نحوه وفتحه ليجد أحد الرجال يكاد يبكي، فسأله: "ما بك يا زهير؟".

قال زهير: "أنجدني يا أبا الفداء، فقد استولى سالم على أغلب ما أملك".

"ولمَ فعل هذا؟".

"لا أعرف... والله لا أعرف، فهو يأخذ الأموال غصبًا من الناس ويقول إنها ضريبة يجب على الكل دفعها، حتى ينفقها على الخدمة العامة".

"أي خدمة عامة تلك؟ ومنذ متى وهو يفعل هذا؟".

سأل أبو الفداء بدهشة فأجاب زهير المقهور: "منذ شهر"، ثم سأله: "ألم يأتِ إليك مبعوثه ليأخذ منك الضرائب أنت أيضا؟".

"لا... لم يأتِ أحد، ولم أسمع حتى عن ذلك الأمر العجيب".

"لماذا؟!".

"لا أعرف، ولكني سوف أذهب إليه بنفسي وأسأله كي أعرف ما يجرى بالضبط".

قال زهير متوسلًا: "حسنًا... وأرجوك أن تطلب منه أن يعيد إليَّ مالي، فمكانتك ليست كمكانة الآخرين وربما يُصغي لكلامك، فأنا لا أريد أن أعود فقيرًا كما كنت... أرجوك يا أخي، حياتي وحياة أبنائي تعتمد عليك".

تحدث أبو الفداء وهو يحاول إخفاء الحزن والألم: "أريدك أن تهدأ وتطمئن، صدقني سوف أذهب إليه وأتحدث معه، وإن شاء الله سأعيد إليك مالك".

وبهذا الوعد الصادق اليائس شكره زهير ثم انصرف، وكان السبب في عدم علم أبي الفداء بما يجري في البلد أنه لم يكن يختلط بالناس كثيرا، وكان أغلب وقته يقضيه مع أسرته وفي رعاية ماله... حتى المسجد الذي بناه وكان يتردد عليه للصلاة، لم يكن يتردد عليه سوى عدد قليل من الرجال، ولم تكن هناك أحاديث تدور بينهم قبل أو بعد الصلاة... ولذلك أصابه همٌّ وحزن لأنه لم يعرف ما حدث سوى بعد شهر، فذهب على عجلٍ وحين وصل لقصر سالم رحب به وأدخله، ولـمَّا جلس أمامه قال سالم وعلى وجهه ابتسامة بلهاء: "كيف أخدمك يا أخي؟".

قال أبو الفداء وهو ينظر في عينيه نظرات لا تُخفي الكره: "إن كنت حقًّا تتذكر أننا كنا إخوة، ربما يسهل هذا ما جئت إليك من أجله".

"أنا أتذكر أننا ما زلنا إخوة... ولن أنسى أنك كنت السبب فيما نحن فيه الآن، ومكانتك في قلبي ليست كمكانة أي فرد آخر".

"حسنًا... شكرا لك على أي حال، ولكن أريدك أن تشرح لي الذي يحدث بالضبط... لماذا تفرض ضرائب على الناس؟ وما معنى الخدمة العامة التي تجمع المال من أجلها؟".

تحدث سالم وعلى وجهه الابتسامة نفسها: "وهل هذا ما يغضبك؟".

قال أبو الفداء الممتعض:

"اليوم زارني أحد الرجال وكان على وشك البكاء لأنك أخذت ماله، أيمكن أن تشرح لي لمَ تفعل هذا؟".

سأل سالم: "ما اسم ذلك الرجل الذي زارك؟"، وقبل أن ينطق أبو الفداء باسم الرجل، تراجع خشية معرفة سالم له ومعاقبته، وهي ردة فعل عفوية تجاهلت أن سالم لديه الرداء بقوته الخارقة التي يمكن من خلالها معرفة اسم الرجل بسهولة:

"هو رجل من أهل البلد، وأخٌ لنا كما ذكرت في بداية كلامك، ومؤكد أن هناك كثير مثله، فلا داعي لذكر اسمه، ما أريد معرفته هو حقيقة ما يحدث، أريد أن أعرف لماذا تأخذ أموال الناس".

تحدث سالم بهدوء واستهانة:

"يا رجل وهل تصدق تلك الادعاءات، كل ما أفعله لصالح الناس حتى نحافظ على هذا البلد... فالأموال التي آخذها أُنفق منها على الحرس وتقوية الفرسان، فأنا أجلب من البلدان الأخرى كثيرًا من الأسلحة وهذا مكلف جدًا، ولكنه لصالح الجميع كما تعرف".

"ولكن الأمر لا يبدو كذلك، فمن جاءني منذ قليل أخبرني أنك أخذت أغلب ماله... فهل تريد أن تجعل الناس فقراء وتجلب الحرس والسلاح لتحمي الفقراء الجوعى!".

انفجر سالم ضحكًا وقال: "يا رجل ماذا تقول... هذا الكلام ليس صحيحًا بالمرة، فأنا آخذ نسبة فقط وبطريقة عادلة؛ فلا تصدق ذلك الكلام البعيد عن الحقيقة... فمؤكد أنَّ من جاءك يبكي قد أضاع ماله وأتى إليك ليفتري علي، فأنا الآن أتولى الحكم وبالطبع ستحاوطني الإشاعات، وأنت تعرف هذا جيدا".

بهذا الرد والأُسلوب المستهين أخذ أبا الفداء يفكر في حيرة وعجز عن قول شيء، ثم سأله: "هل لديك أي شيء آخر

يمكن أن تقوله في هذا الشأن، كي أخبر الرجل به إن زارني مجددًا؟".

أجاب سالم: "بالطبع لا، فأنا أخبرتك بالحقيقة كاملة"، ثم أومأ برأسه تعبيرًا عن عدم الاهتمام وهو يقول: "تجاهل هذا الأمر ولا تُشغل بالك بما يزعجك، فهناك كثيرٌ من الناس يعشقون الشكوى ويريدون أن يظهروا دائمًا بمظهر المساكين حتى ينالوا العطف، والآن قُم معي لنتناول الطعام"، فقام أبو الفداء وهو يقول: "لا، ليس لدي شهية لتناول أي شيء".

"حسنًا، إن كنت ترغب في الذهاب فكما تريد... ولكن أرجو ألا تكون غاضبًا أو حزينًا مني، فأنا لا أتحمل غضبك أو حزنك مني كما تعرف".

تحدث أبو الفداء بصوت خفيت من شدة القهر: "لا بأس، وبعد إذنك سأذهب الآن".

"حسنًا، تفضل"، قالها سالم ومشى أبو الفداء وخرج من القصر قاصدًا بيته، ثم ظهر شاهين على الفور الذي كان يستمع لما يدور بينهما، فقال بغيظ:

"لماذا تعامل ذلك الرجل بلطف هكذا! يجب أن تكون حادًّا معه أكثر من هذا، فمن يكون أبو الفداء حتى يتجرأ ويأتي إلى هنا لمناقشتك في أمور البلد! يجب أن يعرف حدوده، فأنت الآن الملك سالم، وليس سالم التاجر الذي كان يشترى منه العسل في الماضي".

"لا لا... يجب أن أكون حذرًا وأنا أتعامل مع ذلك الرجل بالتحديد ويجب ألَّا نُعاديه... فأنت تعرف مكانته عند أهل البلد، ولو أنه صار ضدنا سنخسر كثيرًا، فيكفي ما نفعله بأخذنا لأموال الناس... فالناس صارت تكرهنا ولم نعد نستطيع الخروج إلَّا بالحرس".

قال شاهين متذمرًا: "يا أخي لقد تكلمنا في هذا الموضوع أكثر من مرة، وقلت لك إن الحال لا يستقيم هكذا، هذا ضد الطبيعة؛ فهل هناك بلد كل أهله ملوك؟! ... إذًا من سيعمل حدَّادًا، بنَّاءً، نجارًا وغير ذلك من الأعمال والحرف، ما دام الكل يعيش في تَرَف".

"الحق معك في كلامك... ولكن لماذا لم نجلب أشخاصًا من خارج بلدنا ونجعلهم يعملون هذه الأعمال التي تتحدث عنها؟".

"لا، فنحن لا نريد أن نُدخل كثير من الأغراب بيننا؛ وكما قلت لك مرات عديدة يجب أن نعيش حياة طبيعية، ويجب أن يكون هناك الفقير والغني... الضعيف والقوي... الحاكم والمحكوم، فهذه هي الحياة الطبيعية التي يجب أن نحياها. وفي الحقيقة أنا لم أستطع تحمل ما حدث بعد دخول ذلك الرداء في حياتنا، وكيف أصبح من كانوا لا يعرفون شيئًا في حياتهم سوى حلب الماعز وتنظيف الحظائر مِن ساكني القصور؛ نعم لقد مرَّ علينا زمن عشنا فيه متساوين، ولكن الأصول المتجذرة الكل يعرف حقيقتها جيدًا، ويعرف من هم أجدادنا وأجدادهم... ولذلك يجب أن يعيش كل إنسان حياة أجداده، ولا يجب أن ينسى أصله الوضيع، لمجرد أنَّ أحمق أعطاه لعبة اسمها الرداء جعلته يحقق أحلامه السخيفة".

فكَّر سالم قليلًا ثم قال: "إن كلامك هذا لم أكن أفكر فيه من قبل".

قال شاهين:

"أنا أتحدث عن الحقائق يا أخي، التي يعرفها الصغير والكبير ولكن يبدو أنهم نسوها، ووجب علينا تذكريهم بها".

استمر سالم لثوانٍ ينظر إلى أخيه الذي أمطره بكلمات متعجرفة طبقية تُظهر الحقد الشديد، ثم مشى إلى غرفته ليتجرع الشراب الذي يحاول به نسيان ما يعيشه من ألم... ولكنه لم يهنأ طويلًا بخلوته، حيث اقتحم شاهين الغرفة عليه بعد دقائق وقال:

"أرجوك يا أخي لا تشرب كثيرًا اليوم، فأنت تعلم أن الحفل الملكي الذي جهزت له سيُقام الليلة، وأنت ستتكلم أمام الناس، يجب أن تظهر بمظهر الملك القوي، وصوتك يجب أن يدوي كالرعد في آذانهم وقلوبهم".

نظر سالم إلى أخيه وتحدث بصوت خفيت: "لا أعلم ما فائدة تلك التجمعات والحفلات التي تُقيمها، أنا أكره الصخب ولا أريد أن أسمع غناءً أو أشاهد رقصات".

"هذه الحفلات والتجمعات يا أخي هي سبيلك لنيل حب الناس، فأنت حين تتكلم أمامهم سيشعرون بعظمتك، والعظمة ستمنحك حب الناس".

ملأ سالم كوبه بالخمر وشرب وهو يقول: "حسنًا" بنبرة استهانة، ما جعل شاهين يشعر بالضيق، ولكنه لم يُبد شعوره تجنبًا للجدال، وبعد ساعة بدأ الناس التوافد إلى ساحة الاحتفال الذي حَضَره كل أهل البلد إلَّا أبو الفداء وأسرته، وبعد ساعة من حضورهم حضر سالم في موكبه الملكي، وجلس على عرشه والحاضرين ينظرون إليه بوجوه باسمة ثم ألقى كلمته وكانت:

"نجتمع اليوم لنُعبر عن فرحتنا بحياتنا الجديدة المليئة بالخير، وأرجو منكم الحفاظ على بلدكم الجميل وعزته، ولن يحدث هذا إلا بترابطكم وتمسككم بالقيم السليمة".

أنهى سالم كلمته وعلت الصيحات تُحييه، وانهالت عليه جُمل الثناء نفاقًا وتوددًا وخوفا... ثم بدأ العازفون العزف على الآلات الموسيقية المتنوعة، بينما الناس يستمعون باستمتاع مفتعل، أمَّا شاهين الذي كان يقف على يمين سالم فهمس

في أُذنه قائلا: "انظر إلى رعيتك وبادلهم الابتسامات يا أخي، لا تقابلهم دائمًا بوجه عابس هكذا".

تحدث سالم دون أن ينظر إليه: "يكفيهم ابتسامتك أنت التي لا تنقطع"، واستمر صامتًا لثوانٍ ثم نظر إليه وقال: "أُريدك أن تُحضر ذلك الشراب العجيب الذي تقدمه لي دومًا، فهو جيد ويُحسِّن مزاجي حتى أكثر من الخمر، أُريدك أن تحضر المزيد منه، ولا تكن شحيحًا كعادتك".

قال شاهين: "بالطبع، لقد أحضرته معي"، ثم وضع يده في جعبته وأمسك بالزجاجة وأخرجها، وملأ كوب سالم وقدمه له، فلم يكتفِ بعد كوبٍ واحد وواصل ملء الكوب، حتى انتهى من شرب ثلاث زجاجات وشاهين ينظر إليه بسرور.

* * *

انقضت ليلة الاحتفال وعاد كل إنسان إلى بيته، وفي عصر اليوم التالي عاد أبو الفداء من إحدى رحلات الصيد، التي كان يقوم بها منفردًا لتخفيف حدة الضغط النفسي الذي كان يشعر به، وبمجرد أن دخل من بوابة حديقة منزله رأى

زوجته جالسة تبكي هي وابنته، فنزل من على جواده وركض نحوهما وسأل بخوف: "ماذا جرى؟ لماذا تبكيان هكذا؟".

أجابت الزوجة: "لقد أخذوا حسن".

"من أخذه؟".

"لقد أتى شاهين منذ نصف ساعة ومعه مجموعة كبيرة من الجنود، وأمرهم بأخذ حسن، وحين سألته قال إنه يأخذه إلى معسكر تدريب الجنود، وَادَّعَى أنك على علم بهذا".

بهذا الرد اشتعل أبو الفداء وقال بغضب: "شاهين الملعون"، ثم اندفع إلى الخارج ومشى حتى وصل إلى قصر سالم، وبمجرد أن دخل من بوابة حديقة القصر وجد شاهين يقف مع مجموعة من الجنود، فصاح به قائلا: "يا شاهين، أحضر ابني حسن الآن".

نظر إليه شاهين وقال: "إن ابنك في أمان يا أبا الفداء، وقد أخذناه من أجل تدريبه كي يصبح أحد الفرسان، فلا داعي للانفعال".

"أحضر ابني حسن الآن يا شاهين، فأنا لا أُريده أن يتدرب أو يصبح فارسا، أُريدك أن تحضره في الحال ولا داعي لأي جدال أو مراوغة".

"تحدث بهدوء ولا تنفعل، فأنت هنا في قصر الملك وأنا نائبه... أنا لا أراوغ، فما قُلته هو الحقيقة، وقد فُرض هذا القانون منذ أسبوع ويجرى تطبيقه هذه الأيام".

ومع إصرار أبي الفداء على إحضار ابنه واصطحابه، وامتناع شاهين عن قبول طلبه، ازدادت نبرة كل منهما حدة، وعلت حتى جعلت سالم يخرج من قصره ويأتي إليهما ويسأل: "ما الذي يجري بالضبط؟ ماذا حدث يا أبا الفداء؟".

تحدث أبو الفداء: "اسأل أخيك الصغير الذي اختطف ابني ولا يريد إعادته".

اتسعت عينا سالم ونظر إلى شاهين وقال بحدة: "ما هذا الذي سمعته؟! ماذا فعلت؟".

تحدث شاهين محاولًا تبرير ما فعله: "يا أخي أنا لم أخطفه، لقد أحضرته فقط كي أقوم بتدريبه مع الفرسان، وهذا ما

سأفعله مع كل الأولاد في البلد، كي نربيهم على الفروسية والقتال في الصغر، ليُصبحوا حماة البلد في المستقبل".

قال سالم غاضبًا: "اذهب وأحضر ابن أبي الفداء الآن، هيَّا".

طأطأ شاهين رأسه وقال بصوت خفيت: "حسنًا يا أخي، أنا تحت أمرك"، ثم ذهب وأمر بإطلاق سراح الولد الذي جاء يبكي وجرى نحو أبيه واحتضن ساقيه، فقال سالم لأبي الفداء: "يمكنك أخذه الآن، وأعتذر لك بالنيابة عن أخي، فهو صغير وطائش"، فنظر أبو الفداء في عينيه ولم يقُل شيء ثم سار بصحبة ابنه نحو بيته، أمَّا سالم فذهب إلى شاهين وتحدث معه في غضب:

"البارحة أتحدث معك وأقول لك إنه يجب علينا ألَّا نعادي أبا الفداء، واليوم تذهب أنت إلى بيته، وتقتحم حرمته وتخطف ابنه بحججٍ واهية، هل يمكن أن تشرح لي ماذا تقصد بعملك هذا؟ هل تستهين بما أقوله لك؟ أمْ أن عقلك لم يعد في رأسك؟".

قال شاهين: "يا أخي ما فعلته كان جزءًا من خطة أُنفذها للحفاظ على ولاء الناس، فحين يكون الجيش مكونًا من أبناء الناس هنا، سيشعرون بقدسية بلدهم".

"إن الولد لم يتجاوز عمره العشرة أعوام، أي جيش وأي جندي هذا الذي تتحدث عنه، ولماذا يكون لدينا جيش؟! أخبرني... فنحن لا ندخل حروبًا، وبلدنا بعيد عن أي بلد آخر، فلا أحد يعرف أي شيء عنه، فليس له حتى اسم يُسجَّل به في التاريخ، فلمَ الاهتمام بتلك الفكرة الخيالية؟ وحتى إن وافقتك على خطتك هذه، فلتبتعد عن أبي الفداء وأسرته، يجب أن تنسى ذلك الرجل وكأنه ليس موجودًا بيننا، أفهمت؟".

قال شاهين بامتعاض: "نعم فهمت، ولكن كما أخبرتك، يجب أن نعامل أبا الفداء كأي إنسان هنا، فهو ليس رجلًا استثنائيا".

نظر إليه سالم نظرة حادة وقال: "اللعنة على هذا الرأس الصلب" ثم انصرف.

* * *

ومرَّ الوقت حتى فات شهران آخران وبينما كان سالم جالسًا على أحد الكراسي بداخل قصره، أتىَ حارسٌ يخبره بأن شخص ما يريد مقابلته، ولـمَّا سأله عن اسمه أخبره أنه يُدعى زهران، وهو ابن الرجل الذي يُدعى بكر، وقد كان من كبار الرجال بالبلد، وأحد الذين وُضعت أسماؤهم بالأوراق لاختيار أحدهم للحكم.

وكان زهران شابًّا في التاسعة عشرة من عمره، ذو بنيان قوي يشبه الفرسان، وحين دخل على سالم نظر إليه بابتسامة ورحب به، ثم سأله عن سبب مجيئه فأجاب زهران:

"لقد جئت إليك سيدي لأطلب العمل لديك؛ فقد علمت أنك تختار الأقوياء للانضمام إلى الحرس، وأُريد أن أكون واحدًا منهم".

تأمل سالم بنيانه بإعجاب ثم قال:

"ولماذا جئت للعمل لدي؟ أليس لدى أبيك مزارع تعمل بها؟".

"نعم لديه، ولكني لا أريد أن أكون مزارعًا، فحلمي هو أن أصبح فارسًا، ولهذا أتيت إلى هنا".

أومأ سالم برأسه موافقًا وهو يقول: "حسنًا أيها القوي، أنا أوافق على عملك لدي... فلتذهب إلى كبير الحرس وتخبره أنك مستجد وتريد التدريب". وبوجه مبتسم شكر زهران سالم ثم انصرف إلى حيث أمره، وبعد ساعة أتى شاهين إلى أخيه وقال غاضبًا:

"ما الذي يحدث يا أخي؟"

سأله سالم: "عن ماذا تتكلم؟"

قال شاهين:

"ما الذي أتى بزهران إلى هنا؟ لقد رأيته يقف مع كبير الحرس منذ قليل".

أخبره سالم بما حدث فاستشاط غضبًا وقال:

"ما هذا الذي فعلته، هل جننت؟!"، فلمَّا سمع سالم ما تفوه به شاهين اتسعت عيناه، واندفع كالثور الهائج، ثم قبض على رقبة أخيه الذي يصغره بخمسٍ وعشرين سنة وقال:

"ماذا قلت يا معدوم الأدب، هل لأني أُعَامِلك كصديقي منذ صغرك سينعدم حياؤك واحترامك لدرجة أن تَصِفني بالمجنون".

حاول شاهين تدارك الموقف، وقال بنبرة الاعتذار وهو يحاول تخليص رقبته من قبضة سالم التي كادت تخنقه:

"لا يا أخي، أنا لم أقصد، أعتذر لك بشدة عمَّا قُلته، ولكني صُدمت بما رأيته، فكيف تجعل ذلك الفتى يدخل قصرنا وينضم إلى الحرس! ألا تعرف أنَّ أباه يكرهك! أنا على يقين من أنه قد أتى ليُنفذ أمرًا ما ضدنا... لا يجب أن تثق به".

ترك سالم رقبته وابتعد عنه خطوات إلى الوراء وقال وهو يتجه نحو مقعده:

"أنا لم أرَ منه أي سوء ولا داعي لهذه الشكوك، فلنعطيه فرصة... فهو فتى قوي ويجب أن نستخدمه لصالحنا، وأظن أن هذا ما تفعله أنت".

هزّ شاهين رأسه رافضًا وهو يقول:

"لا يا أخي، هذا ليس ما أفعله، فأنا أَنْتَقِي الصغار ومن هم أهل للثقة، أمَّا فيما يخص زهران، فأنا متأكد من أن هناك مكيدة تُحاك ضدنا، وذلك الولد اللئيم جاء لتنفيذها، وإن كنت لا تصدقني، استخدم الرداء حتى ترى حقيقة ما أقوله".

بهذا الحل الذي انتظر به شاهين من أخيه الانصياع والموافقة كعادته، باغته سالم باعتراض سريع: "لا، لن أستخدم الرداء".

سأل شاهين في دهشة من سرعة ردة الفعل الرافضة: "لماذا؟!"

فأجابه سالم بجدية:

"لن أجعل كل حياتي تُقاد بالرداء، اترك هذا الأمر لي وأنا سأعرف الحقيقة بنفسي، وعليك نسيان الرداء وقدرات الرداء وكأنه ليس موجودًا في حياتنا... أعطني فرصة كي أشعر بأنني إنسان حي به روح وعقل، وليس عبدًا لذلك الرداء الذي بدأت أشعر بالبغض تجاهه".

بهذا الرد غير المتوقع كاد شاهين يُصاب بالجنون، ولكنه تمالك أعصابه حتى لا يتفوه بما قد يخلق خصومة بينه وبين أخيه فقال:

"ما هذا الكلام الذي أسمعه؟! أنا لا أكاد أصدق ما تقوله، إنه الرداء يا أخي... كيف تقول هذا عنه؟!".

تحدث سالم بنبرة منكسرة خافتة:

"أعلم أنه الرداء وأنه السبب فيما نحن فيه الآن من نعيم، ولكن هذا ما أشعر به... ولهذا أريدك أن تُنهي الكلام في هذا الموضوع كما أخبرتك، اترك أمر زهران لي وتجاهل الرداء تمامًا وكأنه ليس موجودًا، ومهما كانت المخاطر، أنا أرغب في خوض هذه التجربة، وهيَّا الآن أُتركني وحدي".

قال شاهين: "يا أخي إن سر كآبتك هي أنك لا تستمتع بالحياة، فمنذ وفاة زوجتك وأنت ممتنع عن الزواج، وتعيش في وحدة... من قبل كنت أظن أنك لا تريد الزواج مرة أخرى لقلة المال، أمَّا الآن فلديك ما يجعلك تتزوج من جميلة الجميلات، حتى أنني أفكر في استخدام الرداء لإحضار فَتيات

من بلدان أخرى لهن جمال مختلف، فقد يفتح هذا شهيتك للزواج والمتعة التي تحرم نفسك منها".

نظر سالم إلى شاهين نظرة ثاقبة وقال: "يبدو أنك جننت، منذ لحظة قلت لك إنني لا أريد الرداء وقوة الرداء تسيطر على حياتي، وأنت الآن تخبرني بأنك تريد استخدامه في إحضار فتيات، اذهب من هنا الآن... فلا حاجة لي بتلك النصائح والأفكار السخيفة، وتذكَّر كلامي عن زهران، فلا تتحدث معي في هذا الشأن مجددًا".

قال شاهين بصوت خفيت: "حسنًا يا أخي، كما تريد"، ثم خرج من الغرفة وهو يشعر بالغيظ وخيبة الأمل.

* * *

ذهب شاهين كما أمره سالم ولكنه لم ينس الأمر، وقرر ألَّا يترك زهران حُرًّا بالقصر، فقضى خمسة أيام يراقبه ويتنصت عليه هو وأي إنسان يتحدث معه، ولم يصل إلى ما يؤكد ظنه، فلم يجد حلًّا غير الاستعانة بالرداء رغم تحذير أخيه... فقد تسلل إلى الغرفة التي يُحفظ فيها وارتداه، وتمنَّى أن يعرف

حقيقة زهران وهل هو يخطط لشيء أم لا، فظهرت أمام عينيه صورة ماضية لزهران وهو يقف ومعه ثلاثة رجال، ويقول لهم:

"حين يتم إقرار اليوم المناسب للتنفيذ ستأتون وتتسللون من الأماكن التي سأخبركم بها لاحقًا، وستقضون عليه وعلى أخيه شاهين، ولتهتموا بشاهين أكثر من سالم... يجب أن تتأكدوا من موته، فهو رأس الشيطان المدبر لكل شيء... وما يحدث في البلد منذ اختفاء الرداء، كله من فعل شاهين وليس أخاه الأبله، أفهمتم؟".

واختفت الصورة من أمام عينيه اللتين لمعتا بعد علمه بالحقيقة، وجرى مسرعًا إلى حيث كان أخوه يجلس وقال له:

"لقد عرفت الحقيقة يا أخي، وأريدك أن تأتى معي لتراها بنفسك".

سأل سالم في دهشة: "أي حقيقة؟"

قال شاهين بابتسامة الثقة: "فلتأتي معي لترى بنفسك"، فقام سالم ومشى معه حتى وصل للغرفة التي كان بداخلها منذ ثوانٍ، وطلب من سالم ارتداء الرداء وتمني ما تمناه... ورغم أنه

رفض من قبل، اندفاع شاهين بهذه الطريقة وإصراره جعله ينفذ طلبه، وحين فعلها وشاهد ما شاهده قال في غضب:

"الخائن اللعين".

قال شاهين معاتبًا:

"أرأيت يا أخي أنني كنت على حق؟ فلو كُنَّا انتظرنا أكثر من ذلك، لكان الأوان قد فات ولَأتمَّ عمله وقضى علينا".

خلع سالم الرداء وأخذ يتأمله وقال بعد صمت قصير:

"ولكن هناك شيءٌ ما".

سأل شاهين بترقب وتجهُّم: "ما هو؟" فأجاب سالم:

"هل يمكن أن يُخطئ هذا الرداء؟ هل يمكن أن تكون الصورة التي رأيناها ليست صحيحة؟ أشعر أحيانًا أن شيطانًا يتلبَّسه ويسيطر على قدراته، وهذا يُخيفني ويجعلني على وشك حرقه للتخلص منه إلى الأبد".

بهذه الكلمات اتسعت عينَا شاهين مصدومًا، وكاد ينتزع شعر رأسه من الغيظ، وقال وهو لا يُصدق ما يسمعه:

"ماذا حدث لك يا أخي؟! ما هذا الكلام الذي تقوله؟! منذ متى وقوة الرداء فيها شك؟! ولماذا سيكذب الرداء علينا ويُظهر لنا صورة خادعة؟!".

حنى سالم رأسه وهو مهموم وحيران، وقال بصوت يشوبه الإرهاق:

"لا أعرف ماذا حدث لي، فأنا أشعر بالتعب، ولكن في كل الأحوال أعتذر لك، لقد كنت مخطئا... والآن سأترك لك الخيار في معاقبته كما تشاء".

قال شاهين من دون تردد: "سوف أقضي عليه اليوم".

ارتعب قلب سالم وشحب وجهه: "هل ستقتله؟".

فأجابه شاهين بتأكيد وإصرار:

"بالطبع سأقتله، لن أجعل الليلة تمر إلَّا وقد قضيت عليه".

"ولمَ لا تسجنه بَدَلًا عن القتل؟".

سأل سالم فأجاب شاهين بحزم: "لا لا... يجب أن يموت، فهذا هو عقاب الخائن، وإن لم نقتله لن نستطيع إثبات خيانته وسجنه، فالناس لم ترَ ما رأيناه نحن".

حنى سالم رأسه من جديد وهو يشعر بعدم الارتياح، ثم استدار ومشى إلى غرفته ليشرب بعد أن استسلم لقرار أخيه الصغير، الذي لم ينتظر أو يُعيد التفكير، فأمر أحد الرجال بقتل زهران، وقد نفَّذ الرجل الأمر بنجاح، حيث طعنه وهو في طريق عودته إلى بيته طعنة قاتلة أودت بحياته.

في الصباح شُيِّعَ جثمانه إلى مثواه الأخير في مشهد أحزن البلد بأكمله... فقد كان أباه يبكي وأُمه كانت على وشك الجنون، وإخوته وأحبته لم يكن أحد منهم إلا ويبكي بحرقة على فراقه، وأبو الفداء يسير بينهم ولا يقل حزنه عن أحزانهم، ليس فقط على موت إنسان في ريعان شبابه، ولكن لأن مشهد القتل الغادر كان من الأشياء الجديدة التي لم يعتادوا على رؤيتها من قبل، وحدوثه في فترة الرداء جعل الحزن يزداد ويصير جبالًا على قلبه، فقد أحسّ بالذنب وكأنه كان السبب فيما حدث وما سيحدث بعد ذلك.

* * *

ومرَّت الأيام حتى انقضت أربعة أشهر منذ ذلك اليوم المحزن، والبلد ما زال يسير في الطريق نفسه الذي افتتحه شاهين، ولم يستطع أبو الفداء أو غيره فعل شيء في الاتجاه المعاكس، وذات يوم كان أبو الفداء عائدًا من رحلة صيد، فإذا به يمر على عمال يُشيدون شيئًا ما... فدفعه الفضول للنزول من على الجواد والاقتراب والنظر إلى أحد العمال ليسأله: "قل لي يا أخي، من أي بلد أنت؟".

ابتسم العامل الذي كانت ملامح وجهه مختلفة عن أي وجه اعتاد أبو الفداء على رؤيته وقال: "في الحقيقة أنا لا أتذكر الكثير عن الماضي، كل ما أتذكره هو الحرب التي اندلعت، والأعداء الذين احتلوا البلد وأفسدوه وسلبوا خيراته لسنوات، إلى أن أتى القائد شاهين وأنقذنا مما كنا فيه وحرر أرضنا من قبضة الأعداء".

سأل أبو الفداء بدهشة: "من يكون ذاك القائد المسمى شاهين؟ وأي حرب تلك التي تتحدث عنها؟".

أجاب العامل بجدية: "القائد شاهين أخو الملك سالم، ملك هذا البلد الذي نعيش فيه، ألا تعرفه؟".

نظر أبو الفداء في عين العامل لثوانٍ محاولًا معرفة ما إذا كان مجنون يهذي أم لا، ثم تحدث وقال: "هل شاهين قاد جيشًا من قبل وحارب وحرر بُلْدَانًا؟".

"نعم هذا صحيح، لقد انتهت تلك الحرب منذ عامين، ومن يومها ونحن نعيش معيشة طيبة بفضله هو والملك سالم الحكيم".

قال أبو الفداء بسخرية: "إن القائد شاهين الذي خاض الحرب وانتصر منذ عامين كما تقول، كان يعمل إِسْكَافِيًّا منذ شهور، أتعرف ما هو الإسكافي، أَمْ أن اللغة العربية التي زرعها شاهين بداخل عقلك لا تحوي هذه الكلمة؟".

نظر العامل في عينَي أبي الفداء في ذهول وقال: "ما هذا الكلام الذي تقوله سيدي، هل تمزح أم تتكلم بجد؟".

أومأ أبو الفداء برأسه وهو يقول: "لا يهم إن كنت أمزح أم أتكلم بجد، فلتتجاهل ما سمعته مني الآن، ولتخبرني أكثر عن هذا البناء الذي يُبنى هنا".

أجاب العامل: "والله يا سيدي لا أعرف، ولكن الملك سالم من أمرنا بالعمل على بنائه كما وصفه لنا، ولكننا لا نعرف ما هو بالتحديد".

ابتسم أبو الفداء وقال متعجبًا: "تبنون شيئًا لا تعرفون ما هو... كيف؟!".

"لا أعرف ماذا أقول لك، ولكن في الحقيقة الأمر مُحير... فالبناء كما وُصِفَ يشبه القصر، القلعة أو السجن".

مع كلمة سجن التي نطق بها البنَّاء فُزِعَ أبي الفداء وقال: "ماذا تقول! سجن؟!" فأكَّدَ البنَّاء قائلًا:

"نعم... فهو سيكون بناءً ضخمًا وله أسوار عالية وبه كثير من الممرات والغرف".

تصلَّب أبو الفداء في مكانه ينظر إليه لثوانٍ ولم ينطق بكلمة أخرى، ثم مشى في طريقه إلى منزله وكلمة سجن تتردد في

عقله طوال الطريق، بعد أن محت كل الروايات الخيالية التي تلاها البنَّاء الغريب.

وظلَّ لفترة يفكر في الأمر والغم لا يفارقه... إلى أن جاء يوم كان جالسًا على كرسيه بحديقة منزله، ورأته زوجته فشعرت بحاله وسألته عن سبب شرود ذهنه الدائم، ولكنه من شدة الانشغال والحيرة لم يرد عليها، فهو لم يسمع حتى صوتها، وقام من على كرسيه وتحرك نحو باب المنزل وخرج منه.

* * *

واصل أبو الفداء المشي الذي أوصله إلى قصر سالم فدخل، وحين صار أمامه قال له: "مرحبًا بك يا رجل، لماذا لم تأت لزيارتي منذ فترة؟ أين كنت؟".

تحدث أبو الفداء من دون أي مقدمات أو حتى الشكر على ترحيبه به:

"أريد أن أسألك عن البناء الجديد الذي تبنيه، ما الحقيقة وراء ذلك البناء؟".

قال سالم المبتسم: "يا رجل أبعد كل تلك الفترة من دون أن أراك أو أتحدث معك، تأتي فقط لتسأل عن شيء كهذا، لم أعلم أنك بهذا الجحود من قبل".

قال أبو الفداء متذمرًا: "لا داعي لهذا الكلام الآن، أريد منك جوابًا واضحًا عن سؤالي... أرجوك".

"حسنًا، كما تريد، ذلك البناء سيصبح سجنًا إن شاء الله".

لمَّا سمع أبو الفداء كلمة التأكيد، شحب وجهه وقال غاضبًا: "ولماذا تبني سجن بذلك الحجم الذي رأيته؟! فمساحة الأرض تصلح لمزرعة كبيرة... هل ستسجن البلد بأكمله؟!".

سمع سالم كلامه وأخذ يضحك كما اعتاد أن يفعل كلما تحدث مع أبي الفداء ثم قال:

"بالطبع لا، ولكن ما لدينا من غرف نستخدمها للعقاب لن تكون صالحة في المستقبل؛ فنحن بعد أن تبدَّل حالنا وصرنا أغنياء، عددنا سيزيد والطمع سيزيد والجريمة ستزيد، وبالطبع يجب أن يكون هناك عقاب رادع... ذلك السجن ضروري في

هذا الوقت، وهو لمعاقبة المذنب وحسب... وأظن أنك سمعت عن الجرائم التي وقعت مؤخرًا، والتي لم نكن نتصور حدوثها من قبل. ألم تسمع عن خليل الذي هتك عرض إحدى الفتيات اللاتي يعملن هنا في طهو الطعام؟ وبعد أسبوع وقعت جريمة أخرى وهي سرقة جوهرة غالية من غرفة أخي شاهين، التي ارتكبتها إحدى الخادمات، وغيرهما من الجرائم... ما يجعل بناء السجن ضرورة مُلحة".

استمر أبو الفداء ينظر في عينيه لثوانٍ ثم تحدث وقال: "ألم تلحظ أن كل تلك الجرائم التي حدثت، حدثت في قصرك أو لها صلة بشخص يعمل في قصرك؟!".

"ماذا تقصد بكلامك هذا؟" سأل سالم الذي اختفت ابتسامته فأكمل أبا الفداء:

"أقصد أن ارتباط تلك الجرائم بك وبمن حولك يثير الريبة، وهناك أيضًا أمرًا آخر أردت قوله في هذا الشأن، لقد بنيت مُلكًا لك ولأخيك شاهين، وها أنت الآن تُشيِّد سجنًا لتعاقب المذنبين كما تدَّعي، ولكن أين هم القضاة الذين يُقِرون بأن هذا مذنب وهذا بريء، فكلما سمعنا عن حادثة

وقعت، نعلم بها بعد تنفيذ الحكم في مرتكبها، إذًا كيف لنا أن نعلم أنَّ من عوقِبَ كان بالفعل مذنب؟! أي عدل هذا الذي تُقيم سلطانك عليه؟ وأين الصدق فيما تقوله وكل من ذكرتهم أو لم تذكرهم تمت معاقبتهم بسرعة غريبة، والجريمة الأكبر وهي قتل زهران لم يعرف أحد فاعلها، مع العلم أن الفتى كان يعمل لديك في آخر أيامه، فلماذا لم تمسك بقاتله حتى الآن؟".

شعر سالم بالارتباك وتلعثم: "نحن ننفذ الحكم على المذنبين لأننا نقبض عليهم وقت ارتكابهم للجريمة ونُحضر شهودا، وأخي شاهين هو من يشرف على تنفيذ الأحكام".

قال أبو الفداء ساخرا: "أخوك شاهين القائد الذي حرر البلدان وعتق الرقاب وعمَّر الأرض، أليس كذلك؟".

"ماذا تقصد بهذا الكلام؟".

"اسأل شاهين وهو سيخبرك، ولكن أنصحك إن كنت تريد معرفة الحقائق بألَّا تسأله، فمن دون شك سيكذب عليك، يمكنك الذهاب إلى أولئك البنائين الذين يبنون ذلك السجن،

وسيخبرونك عن تاريخ أخيك المجيد البطولي الذي لا تعرفه أنت".

"لا أفهم شيئًا يا أبا الفداء، أرجوك كن واضحًا في كلامك"، قال سالم فتحدث أبو الفداء بنبرة حادة والمقت يشع من عينيه:

"اسمعني جيدًا يا سيد سالم... الأيام تمر والشهر ينقضي بعد الشهر منذ توليك حكم هذا البلد وكلانا يعرف كيف حدث هذا، فلا داع لأن تفعل أفعالًا تجعلني أفشي سرك أمام الناس، وأقول لهم كيف حدث ما حدث، فيكفي ما فعلته حتى الآن... فلا تضف مصيبة أُخرى وهي الأكبر كما أرى".

لمَّا سمع سالم الكلام اتسعت عيناه وتسارعت نبضات قلبه، وتظاهر بالجهل: "ماذا تعني بكلامك هذا؟ أنا لا أفهم شيئًا مما تقول".

قال أبو الفداء ساخرًا:

"لا تبدأ مشهدًا جديدًا من التمثيل الفاشل أرجوك، فأنت تعرف جيدًا ما أقصده.

أنت من أخفيت أردية الأحلام حتى تتحكم في البلد، وقد تأكدت من ذلك بنفسي، ولكني مع الأسف لم أقدر على فعل شيء، وخوفًا من الفتنة وضياع البلد بأكمله التزمت الصمت، وقُلت أنتظر حتى أرى ماذا ستفعل، وحاولت أن أُقنع نفسي بأنك فعلت ذلك لمصلحة البلد، وأنك تريد توحيده ومنع العبث بشيء خطير كالرداء، وهو الشيء الذي كنت أفكر فيه أيضًا وأخشاه... وكنت أتمنى إيجاد حل له بالتشاور والاتفاق، لا بالتآمر والمكيدة... ولكن السوء هو ما حدث والأمر لم يعد يُطاق، فظلمك وتجبرك يزيدان مع الوقت، والفقر تفشى من جديد بين الناس... والأكثر بشاعة هو الخوف الذي لم نكن نعرفه، فالناس صارت تخاف من ذكر اسمك وتحوَّل الكثير إلى عبيد عندك، ولا تنسى ما حدث لزهران، الشاب الذي قُتل في ريعان شبابه، وأظن أن عمله عندك كان سبب مقتله الغريب... فالشاب لم نسمع يومًا أنه كان يُعادي أحدًا أو أحدًا يُعاديه، وبعد عمله عندك بأيام قُتل ولا نعرف السبب.

فماذا فعل أولئك المساكين حتى تفعل بهم ما تفعله؟ لماذا لم ترع الصداقة والأخوة التي كانت بينك وبينهم، وخُنتهم

وهدمت أحلامهم وأعدتهم إلى حياة الذل والفقر؟ ... هيَّا أجبني وحاول أن تبرر فعلك المشين هذا".

وكان سالم يستمع إلى الكلام الذي ينزل عليه كحمم البركان ويتصبب عرقا، ولسانه توقف عن النطق، وما استطاع تبرير عمله ولو بكلمة واحدة، فأكمل أبو الفداء قائلًا:

"يبدو أنك عجزت عن الكلام، وأنا لن أكون مثلك؛ سأرحمك وأترك لك باب التوبة والرجوع إلى الحق، ولكني أُحذرك، فمهما فعلت أمرك سينكشف يومًا ما، وستلقى مصيرًا مُذِلًّا مهما طال بك الوقت... فحتى الرداء الذي هو الجريمة التي ارتكبتها حين أعطيتك إياه، إن قضيت به على أهل هذا البلد واستبدلت قومًا غيرهم، حتمًا لن يتركوك، وستجد منهم من يثأر لمن ظلمتهم... فعليك أن تُذكر نفسك دومًا بأن الله حي لا يموت، وهو يراك ويعلم ما في قلبك، وأن حمد نعمة الرداء يكون بحسن استخدام قوته وتسخيرها للخير... ولأكون وَاقِعِيًّا، لن أطلب منك إعادة الأردية للناس ولا حتى لي، فما أرجوه منك هو أن تكون حاكمًا عادلًا وحسب... وبعدها يمكن أن نتناقش في أمر

الرداء حين تهدأ النفوس وتصفى القلوب، توقف عن إذلال الناس وظلمهم، وقِفْ بوجه شاهين وأهوائه، أنا أعلم أنك تحمل خيرًا بقلبك ولكنك تحتاج إلى مجاهدة، وهذه هي آخر فرصة لك حتى تصحح أخطاءك، وإلا ستواجه غضب الناس حين يعرفون الحقيقة".

أنهى أبو الفداء كلامه ثم قام وتحرك نحو الباب وترك سالم الذي كاد قلبه يتوقف مما سمعه... وبمجرد أن أُغلق الباب نادى سالم على أحد الحراس وأمره بالقبض على أبي الفداء وإلقاءه في السجن، ثم أمره باستدعاء أخيه شاهين ليخبره بما جرى، وقد نفَّذ الحارس الأمرين على الفور... ولـمَّا حضر شاهين سأله: "ماذا حدث يا أخي؟".

قال سالم المذعور: "لقد انكشف أمرنا... أبو الفداء يعرف أن الرداء ما زال معنا".

سأل شاهين متعجبًا: "كيف عرفت أنه يعرف؟"

"لقد أخبرني بنفسه... وهددني بأنني إن لم أتراجع عن بناء السجن سيفضح أمري، ولذلك قبضت عليه واحتجزته هنا".

مع سماع شاهين لكلام أخيه ابتسمَ ابتسامة هادئة وقال: "وهل هذا هو الأمر الخطير الذي يزعجك هكذا؟"

تعجب سالم من ردة فعل شاهين وسأله مستنكرا: "ما هذه الابتسامة الساخرة، هل تستهين بأمرٍ كهذا!؟".

"في الحقيقة هو شيء لا يستحق كل هذا الذعر ولا يُزعج بالمرة... فربما لو كان هذا الكلام في البداية لكنت سأشعر بالقلق، أمَّا الآن فلا أبو الفداء ولا غيره يقدر أن يفعل أي شيء ضدنا... مهما قال ومهما حاول أن يفعل".

"كيف هذا!؟ ألا تخاف من غضب الناس حين يعلمون بأمر الرداء!؟".

سأل سالم المرتبك فقال شاهين الهادئ الواثق بقوله: "صدقني يا أخي مهما فعل لن يصدقه أحد، وحتى لو صدقوه سيتظاهرون بعدم تصديقه خوفًا على أنفسهم... ولهذا أدعوك أن تترك أبا الفداء يذهب، فحبسك له سيكون ضدك".

قال سالم في غضب: "كيف أتركه بعد ما قاله؟! هل جننت؟!".

"صدقني لن يقدر على فعل شيء، أطلق سراحه وسوف تتأكد من صحة كلامي بنفسك".

أخذ سالم يفكر قليلًا ثم استسلم كعادته لكلام أخيه الصغير وقال: "حسنًا، كما ترى، ولكن إن حدث ما أخشاه ستكون أنت السبب".

تحدث شاهين مبتسمًا ابتسامته المعتادة: "لا تقلق، لن يحدث شيء".

وبالفعل أمر الحراس بإطلاق سراح أبي الفداء، وبمجرد أن خرج، ذهب إلى صالح كأحد الرجال الكبار بالبلد وقال له:

"هناك أمرًا هامًّا يجب أن أخبرك به، وهو أمر خطير لا يحتمل التأخير".

قال صالح: "ما هو هذا الأمر؟ تكلم يا أخي".

قال أبو الفداء: "حين تسمعه ربما لن تصدقه، ولكني أُقسم لك بالله أنه حقيقي".

"يا أخي من دون أن تقسم، أنا أعرفك جيدًا وأعرف أنك لا تكذب... فهيَّا تكلم دون مقدمات".

"حسنًا، الأمر متعلق بالرداء... أتعرف السبب في اختفاء الأردية؟".

اتسعت عينا صالح بسماعه كلمة الرداء وسأل:

"هل عرفت السبب؟"

أجاب أبو الفداء:

"نعم عرفته، عرفته منذ فترة طويلة وأخفيته خشية الفتنة".

"أولًا أريد أن أعرف السبب، وبعده أُقرر هل إخفاؤك له كان صحيحًا أم لا".

"حسنًا... السبب في اختفاء الأردية هو سالم".

"ماذا تقول، سالم! كيف هذا؟".

"هذه هي الحقيقة، فسالم هو من تمنَّى اختفاء الأردية إلَّا رداءه ليتحكم في البلد، وقد تأكدت من ذلك بنفسي".

"وكيف عرفت هذا؟"، سأل صالح فأجاب أبو الفداء:

"لقد ازدادت الريبة بداخل قلبي حين رأيت سرعة ردة فعله بينما كان الكل مفجوعًا من فقده للرداء... ولـمَّا حان وقت انتخاب الحاكم بالطريقة المثيرة التي كانت من ابتكاره، ميَّزت الورقة التي تخصني بعلامة حتى أعرفها، فوجدت الاسم قد تغير وصار اسمه، وبالطبع لن يقدر أحد على فعل هذا إلَّا باستخدام الرداء... ومن دون لعبة الورقة تلك، أظن أنك ترى ما فعله وما يفعله بالناس، فإنه كافٍ لإظهار صدق قولي".

قال صالح بغيظ ليس من سالم فقط بل أيضًا من أبي الفداء:

"وأنت جئت تفصح عن هذا الآن! يا حسرتا، فلو صدقك كل من في البلد ما الفائدة؟ قل لي ماذا يمكن أن نفعل الآن والرجل بين يديه قوة لا يمكن لبشر التصدي لها؟ فتخيل أنك قُلت هذه الحقيقة في وقت حدوثها، لكُنَّا هجمنا عليه هجمة رجل واحد وقتلناه هو وأخوه شاهين الكلب اللعين، أمَّا الآن فأخبرني كيف لنا أن نقترب حتى منه، ألا ترى عدد الجنود الذين يلتفون حوله كلما رأينا وجهه الكئيب، وهناك أمرًا آخر أريد أن أسألك عنه".

قال أبو الفداء بصوت خفيت: "تفضل أنا أسمعك".

"هل ذهبت إليه وأخبرته أنك تعرف، وطلبت منه أن يرتدع ويكون إنسانًا صالحا؟".

مع هذا السؤال استمر أبو الفداء صامتًا لثوانٍ ثم قال: "مع الأسف لقد فعلت هذا منذ دقائق".

ابتسم صالح وقال ساخرا: "أنت رجل طيب يا أبا الفداء، وهذا الزمان ليس زمان الطيبة، هذا زمان الخبث والمكر، لقد أخطأت الخطأ الثاني الذي جعل خطأك الأول لا يمكن تداركه، فبعد ذهابك إليه وإخباره بأنك تعرف السر، مؤكد أنه قد أخذ كل الاستعدادات الممكنة للتصدي لأي تصرف، فعليك أن تُسلم بأننا لن نقدر على فعل أي شيء حيال هذا، وعليك أن تبتهل إلى ربك كي يجعل سالم يسامحك ولا يُلحق بك الضرر أنت وأسرتك".

تحدث أبو الفداء بحماسة: "يا رجل ما هذا اليأس! لم يصبح سَالِم إلها، فهو ما زال رجلًا بشريا، وإن تصدينا له سننتصر، صدقني سنقدر على فعل الكثير، المهم أن نبدأ، فلا يجب أن نترك سَالم حتى يستفحل طغيانه أكثر من هذا، إنه على وشك إنهاء بناء سجن كبير لا يمكن لأحد تخيله، يجب

التحرك في أسرع وقت وردعهِ قبل انتهائه من بناء ذلك السجن المرعب، وإن كنت لا تصدقني، تعال معي لترى بنفسك ذلك البناء".

قال صالح في حسرة ويأس: "لقد رأيته بالفعل، ولكن مع الأسف هذه الشعارات لن تُجدي نفعا، لقد فات الأوان".

سأله أبا الفداء في دهشة: "أبهذه السهولة سنتخلى عن الأمر ونترك سالم يفعل ما يشاء؟!".

أجاب صالح بنبرة أشد يئسا: "نعم".

"هل هذا هو قرارك النهائي؟".

"نعم... فلا قوة لنا ولا حيلة في أمر كهذا، وأنصحك يا أخي أن تترك وتنسى وكأن شيئًا لم يكن، فهذا قدرنا ولا نملك سوى تقبُّله بخيرهِ وشرهِ، ولتحذر من التهور، فسالم وشاهين رجلان خطران، لا يمكن العبث معهما".

قام أبو الفداء وهو يقول: "حسنًا، كما تريد"، ومشى متجها إلى باب البيت وخرج وهو يشعر بخيبة الأمل، ولكنه لم يتوقف وذهب على الفور إلى بيت بكر، ظنًّا منه أنه سيدعمه

ويشد عضده بعد أن يعلم ما حدث، فصُدم بقول آخر لم يكن يتوقعه:

"مهما قلت ومهما فعلت لن يعود ابني إلى الحياة، ومن الأفضل لي ولك أن تترك الأمر وترضى بما حدث، فأنا لدي ثلاثة أبناء ولا أُريد أن أعيش فقدان أحدهم كما عشت فقدان زهران، وأنت أيضًا يا أخي لديك طفلان، يجب أن تحذر... فذلك الرجل مجرم والقتل لم يعد محرم عنده".

لم يستطع أبا الفداء التحدث بعد كلامه فتركه في ألمِهِ ورحل، وظلَّ يذهب إلى الناس ويحكي لهم عمَّا حدث، ولكن كان كلام صالح حقيقي، فلم يُقدم أيًّا منهم على الوقوف بجانبه ولو بالقول... فالكل تحسر وخاف من بطش سالم ويئِسَ من فعل شيء، فعاد أبو الفداء إلى بيته وحين صار أمام زوجته قال لها في حزن:

"لم يعد لنا مكانًا في هذا البلد بعد الآن، يجب أن نرحل في أسرع وقت".

تساءلت مصدومة: "لماذا؟ ما الذي حدث؟".

"سأحكي لكِ لاحقًا، ولكننا-كما قلت للتو-يجب أن نرحل... فلو بقينا هنا لن يتركنا سالم وشأننا بعد ما حدث، وأنا لن أُعرضكُمْ للخطر... يجب أن نرحل، فهنا لم يعد مكانًا آمنًا لنا".

سألت الزوجة وهي على وشك البكاء: "ولكن إلى أين سنذهب؟ وكيف سنعيش؟".

أمسك برأسه وأغمض عينيه وهو يقول: "لا أعرف، والله لا أعرف"، ثم فتحهما ونظر إلى زوجته وأكمل: "ولكن كما أخبرتك، هذا البلد سيكون عيشنا فيه عسيرا، فالأمر لم يعد متعلقًا بطعام أو شراب نبحث عنه، الأمر صار أخطر وتطور إلى أن أصبح تهديد يمكن أن يقضي علينا، ولذا يجب أن نبتعد ونترك هذا البلد".

"أنا لا أعرف ما حدث، ولكن لن تكون حياتنا أكثر عسرًا من الحياة في العراء... علىَ الأقل نحن هنا في دارنا نأكل ونشرب ولدينا جدران تحمينا، أمَّا إن ذهبنا فربما لن نتحمل طويلا، وإن تحملنا نحن، فلن يتحمل ابنك وابنتك... عليك أن تفكر فيهما".

"أعرف أن ترك بلدنا أمرًا عسيرًا ولكني أخشى عليكم... فلا أحد يشعر بكمِّ الحسرة التي في قلبي على الحلم الذي انقلب إلى كابوس في وقت وجيز، ولكن ماذا أفعل... فهذا قضاء الله الذي حلَّ علينا بظلم من أنفسنا".

"أرجوك أخبرني... أريد أن أشاركك التفكير، فلعلنا نجد الحل سويّا".

فكَّرَ أبو الفداء قليلًا ثم نظر إليها وقال: "سأخبرك بالتأكيد بما حدث ولكن ليس الآن، فمزاجي لا يسمح بأن أحكي... ورغم أنني لا أعرف ماذا أفعل سأُنفذ إرادتك، فإن كانت هذه هي رغبتك فكما تريدين، سنبقى وليحدث ما يحدث".

* * *

وبقي أبو الفداء وأسرته في دارهم كما وعد زوجته، وازداد انغلاقه على نفسه، فلم يكن يقابل أحدًا إلَّا للضرورة... وبعد مرور أسبوع واحد سمع طرقًا على الباب، ولـمَّا ذهب وفتحه وجد خمسة رجال من بينهم نعمان قد أتوا لزيارته، فرحب بهم وأدخلهم ثم جلس يتحدث معهم، فقال أحدهم:

"هل أنت بخير يا أبا الفداء؟".

"أنا بخير والحمد لله"، أجاب أبو الفداء فسأله آخر: "إذاً ما حقيقة ما سمعناه مؤخرا؟".

"ما هذا الذي سمعتموه مؤخرا؟".

"ألا تعرف أنهم يشيعون عنك في البلد أنك أُصبت بالجنون؟".

"الجنون! ما هذا الذي تقوله!؟".

"لست أنا من يقول... الناس هم من يقولون، فقد انتشر الخبر في كل أنحاء البلد، والكل يعرف الآن أنك تتخيل أن الرداء ما زال موجودًا، وأنَّ الملك سالم لديه رداء يُخفيه".

لمَّا سمع أبو الفداء الكلام أدرك أن سالم من فعل هذا، وسألهم وهو يشعر بالغيظ: "وهل تظنون أن هذا الكلام من وحي الجنون، وأن من تُطلقون عليه الآن لقب الملك ليس لديه رداء؟".

تحدث نعمان: "إذًا أنت تقول هذا بالفعل؟".

"نعم، لأن هذا ما حدث، وإن لم تصدقوني فهذا شأنكم ولا دخل لي به... ولكن ما قُلته هو الصدق والحقيقة".

بهذا الرد الحاد تبسَّموا وكأنهم تأكدوا من إصابته بالجنون، وتحدث نعمان مرة أخرى بالنبرة الاستفزازية نفسها: "وكيف عرفت أن الملك سالم لديه رداء؟".

تحدث أبو الفداء وهو على وشك طردهم من منزله غيظًا من طريقة حديثهم الساخرة: "ليس مهمًّا أن تعرفوا أو أن تصدقوني، وإن كنتم تريدون تصديق كلام ذلك الرجل، فعاملوني كالمجنون... فمهما قُلت لن يتغير شيء"، قال أحدهم وهو ما زال مبتسم ابتسامة سخيفة بلهاء:

"لماذا غضبت هكذا يا رجل؟ نحن نتناقش ونريد أن نعرف الحقيقة ليس أكثر".

أحسّ أبو الفداء بأن الكيل قد طفح فقال منفعلا: "حسنًا، لا يوجد مشكلة... ولكنِّي لن أتحدث في هذا الأمر مجددا، وإن كنتم جئتم من أجل زيارتي فلنتحدث في أمر آخر، أمَّا إن كانت زيارتكم من أجل هذا الأمر وحسب، فليس لدي ما أقوله، وها هو باب البيت أمامكم".

وكز نعمان الرجل في جنبه، ثم تحدث مع أبي الفداء بطريقة الحديث مع الأطفال أو المجانين:

"حسنًا يا أبا الفداء، سنتركك حتى تهدأ أعصابك"، ثم قاموا وخرجوا من بيته، ليسمع ضحكاتهم التي لم يكتموها حتى يبتعدوا عن البيت... أمَّا هو فقد ارتفع ضيق صدره وغيظه منهم إلى درجة لا تُحتمل، جعلته على وشك التهور وفعل شيء جنوني بثه شيطانه في عقله، لولا سيطرته على غضبه التي جعلته يذهب إلى غرفته ويجلس على كرسيه، ويكتفي بأن يقاوم ويتضرع إلى الله بأن يرزقه الصبر، فلا ينساق وراء ذكريات الماضي وما فيه من طريقة سابقة لتعاملهم معه، كانت تُظهر الاحترام والتقدير، ودورها الشيطاني في إشعال الكره والغضب في قلبه... ومن أثر ما حدث عليه وشعوره بأنه مطارد ومُهدد، أصبح يترقب ويحاذر ويتجنب الأحاديث والاختلاط، ولم يعد يفتح الباب أمام أي زائر... وفي يوم ذهب للصلاة في المسجد، الذي لم يكن يتردد عليه سوى ثلاثة أفراد والإمام، نظر إلى وجه الإمام ففزع، وهمس إلى صالح الذي كان يقف بجانبه استعدادً للصلاة: "من هذا الرجل؟".

قال صالح في دهشة: "من تقصد بهذا السؤال يا أبا الفداء؟ إنه الشيخ بلال، ألا تعرفه؟".

"لا، هذا ليس الشيخ بلال، إنه رجل يشبه أبي، أشعر أنه أبي بالفعل، من هذا الرجل أخبرني، وأين الشيخ بلال؟".

بهذه الكلمات استمر صالح ينظر إليه لثوانٍ ثم تساءل: "ماذا حدث لك يا رجل؟ هل أنت بخير؟".

ومع هذا السؤال وجد أبو الفداء الإمام الذي كان يرى فيه هيئة أبيه عاد إليه هيئته الأصلية، ومع تلك العودة أُصيب بدوار لحظي ثم قال بصوت خفيت: "أنا بخير".

وانتهت الصلاة وأسرع أبو الفداء إلى الخارج وهو شارد الذهن، وبمجرد أن خرج من باب الجامع رأى مشهدًا آخر جعله يتعجب... فقد رأى الأسوار التي كانت تُحيط بالجامع مع بوابة الدخول قد تلاشت، فظلَّ يحدق في ذهول ثم أكمل السير في الاتجاه نفسه وهو لا يرى أي حاجز أمامه، فاصطدم رأسه بشيء أوقفه، ومع الاصطدام المؤلم عادت الأسوار والبوابة للظهور أمام عينيه... ومن ورائه تحدث من

رأى هذا المشهد الذي بدا غريبًا ومضحكا: "ماذا حدث لعيناك يا أبا الفداء؟ ألم ترَ الجدار؟".

فلم يُجب على من تحدث من ورائه وخرج من البوابة، وتحرك نحو بيته وهو يمشي بخطوات متعجلة إلى أن وصل إلى البيت ودخله، فإذا به يصطدم بمشهد آخر وكان الأكثر رعبا.

لقد رأى ابنه حسن كما هو، الفتى الصغير الذي لم يتجاوز عمره العشرة أعوام، ولكن رأسه رأس زهران ابن بكر، الشاب الذي قتله شاهين، ما جعله يفزع ويهرب إلى غرفته ويُغلقها على نفسه، ثم يجلس على سريره ممسكًا برأسه الذي كاد ينفجر، ويقول وهو على وشك البكاء: "ماذا حدث، ماذا حدث، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم".

وفي ظل هذا الفزع الذي يعيشه سمعَ قَرْعًا عَلَى بَابِ غرفته، ولمَّا سأل من الطارق، أجاب صوت زوجته:

"يا أبا الفداء، هيَّا اخرج من غرفتك الآن وتعال إلى غرفة الطعام، فقد أعددت لك حساء الكلب الذي تحبه، هيَّا قبل أن يبرد ويفسد مذاقه".

هبَّ واقفًا وتحرك ببطء نحو الباب وسأل: "من أنت؟ وأي حساء كلب هذا الذي تتحدثين عنه؟".

أجاب الصوت نفسه قائلا: "أنا زوجتك وردة، ماذا حدث لك... ألا تميز صوتي بعد خمسين عامًا مروا على زواجنا، هيَّا افتح الباب، هيَّا افتحه الآن وإلَّا ألقيت بسلمى في قدر الزيت".

بهذا التهديد القادم من الصوت المجهول خلف الباب، فتحه أبو الفداء مفزوعًا فلم يجد أحدًا يقف خلفه، فأغلقه بعنف وذهب إلى أحد الكراسي وجلس وهو يشعر بالإرهاق، وعينيه صارتا بلون الدماء.

واستمر على هذا الحال لخمسة أيام مروا عليه في فزع وتشتت جعله على وشك الجنون... وبالطبع أدرك أنَّ تلك الألاعيب هي من فعل سالم وشاهين، ولكنه عجز عن الحديث حتى مع زوجته، لعِلمهِ أن إظهاره بهذه الحالة هو الهدف من تلك اللعبة، كي يؤكد للكل أنه رجل فاقد العقل... حتى أتى صباح وجد فيه ابنته تدخل عليه باكية فسألها: "ما بك يا سلمى، ماذا حدث؟"

أجابت: "لقد ذهبت مع حسن إلى الخارج لشراء بعض الحلوى، وفي طريق عودتنا تقابلنا مع بعض الأولاد والبنات، فاستمروا في السخرية منَّا وقول إننا نعيش في بيت الرجل المجنون".

بهذه الكلمات استمر أبو الفداء صامتًا لثوانٍ يشعر بالحسرة والألم، ثم تحدث إلى ابنته قائلا:

"اهدئي يا ابنتي ولا تبكي أو تحزني، فهم لا يعرفون شيئًا، إنهم مجرد أطفال يرددون كلامًا لا يعرفون حقيقته، فلا تبالي بما قالوه، وهيَّا اذهبي الآن إلى حسن وقولي له ما قلته لكِ... هيَّا"، ثم قام من على كرسيه وذهب على الفور إلى زوجته وقال لها:

"أرأيتِ... أيام معدودات حتى أصبحت المجنون وأنتم أسرة المجنون والبيت صار بيت المجانين، وبالتأكيد هذه هي بداية لما هو أسوأ، فأنا قررت ولن أتراجع، وإن لم تكن رغبتك هي الذهاب معي، فلا بأس، يمكنكِ البقاء وسأذهب وحدي، على الأقل لا أجلب لكم الضرر أكثر من ذلك، وأتخلص من

السجن الذي أنا فيه، فالقرار لكِ... هل ستأتين معي أم ستمكثين هنا؟".

قالت الزوجة الحزينة: "أنت تعرف أنني لن أتركك تذهب وحدك... حتى وإن رفضت من قبل، كان خوفًا من المجهول، ولكن ما دام الأمر هكذا فلنذهب والله يرعانا... ولكني في حيرة ولا أصدق ما يحدث؛ هل يبلغ النكران هذا الحد! لقد نسوا جميعا أنك كنت السبب في جلب الرداء الذي كان سببًا فيما هم فيه من خير... كيف يفعلون معك هذا!؟ كيف ينعتونك بالمجنون وهم يدركون جَيِّدًا أنك لست مجنونا!؟".

تحدث أبو الفداء وعلى وجهه ابتسامة الحسرة:

"هم لم ينسوا ما فعلته من أجلهم ولم يصدقوا بأني مجنون... ولكنهم تناسوا وجعلوا أنفسهم يصدقون وقلوبهم تُخفى الحقيقة... الكل يعرف أنني أقول الحق، ولكن التصديق بشيء كهذا سيولِّد الألم في قلوبهم، والألم سيدفعهم إلى المواجهة، وتكلفة مواجهة سالم ستكون باهظة الثمن. فقد قالها لي بكر صريحة حين أخبرته بما حدث، فمن قُتلَ ابنه

غدرًا لم يفعل شيئا، ما بالك ببقية الناس... ولهذا رضوا بالتناسي ومحاولة التصديق، خوفًا من المواجهة ليس أكثر، وأنا أعترف أنني ارتكبت خطأين، أولهما حين أخفيت ما حدث عن الناس وقت حدوثه، وثانيهما حين ذهبت وحذرت سالم وأفصحت عمَّا بداخلي، وهذا يجعلني أشعر بالخجل من نفسي وأُفضل الرحيل والابتعاد".

تفكرت فاطمة في كلامه ثم قالت: "نعم نعم فهمت قصدك، ومهما كان ما سيحدث أنا سأذهب معك، لعلَّ الله يكتب لنا خيرًا مما سنتركه".

قال أبو الفداء بابتسامة تفاؤل: "هذا هو عين الصواب، ولا تخافي، فالله لن يتركنا، ثقي بهذا".

"ونعم بالله... ولكن هل ستبيع البيت والحقول والحيوانات والطيور لنعيش من نقودها في أي بلد آخر؟".

سألت فاطمة فأجاب أبو الفداء من دون تفكير: "لا".

سألت باستغراب: "إذًا ماذا سنفعل؟!".

"سنذهب في الطريق نفسه الذي سلكته حين وجدت الرداء، لعلنا نجد الخير كما حدث في المرة السابقة، ولنترك كل شيء وراءنا".

"ولكن لماذا؟ لماذا لا نذهب إلى بلد آخر مهما كان بعيدًا، ونعيش فيه بما لدينا من مال؟ لماذا نذهب إلى المجهول ولدينا ما ينفعنا؟ أنت تعرف أن بيع ممتلكاتنا سيجلب لنا كثير من الذهب، الذي به يمكن أن نعيش حياة كريمة في أي بلد... ألا ترى أن هذا أفضل؟".

تساءلت فاطمة فقال أبو الفداء الذي بدا غير واضح النية:

"أعلم أن ما تقولينه هو الخيار الأفضل، ولكني أريد أن أكرر تلك التجربة مرة أخرى... فأرجو أن تثقي بقراري ولنذهب في الطريق نفسه، لدي شعور بأن هذا هو الصواب".

وعلى الرغم من أنَّ قرار أبي الفداء العجيب وهو السير في الطريق نفسه وترك مالهم للمجهول، كان قرارًا لا يوجد به ذرة من حكمة، اكتفت زوجته بالصمت ووافقت دون جدال إضافي، وهي ما زالت تشعر بالخوف مما هم مقدمون عليه.

* * *

جهَّز أبو الفداء وزوجته الأغراض وفي مطلع الفجر استقلوا العربة، وانطلقت الأحصنة تجرها حتى خرجوا من حدود البلد، وفي طريقهم كانت الزوجة حزينة ومهمومة على عكس أبي الفداء الذي بدا متحمسًا، وابنه وابنته لا يعرفان ما يحدث... وكلما سئلا يقول لهما إننا ذاهبون في رحلة.

ومرَّ الوقت والعربة تسير في الصحراء في الطريق الذي سلكه من قبل وأوصله إلى البيت الذي وجد فيه الرداء، ولسوء الحظ أن ابنه حسن كان مريضًا بنوبة برد شديدة، واشتد عليه في الطريق لبرودة الطقس، فقال له بصوت خفيت: "أبي... أنا متعب جدًا"، فقال أبو الفداء وهو يشعر بالذنب بسبب استعجاله الرحيل، وعدم انتظاره في ظل مرض ابنه:

"حسنًا... سنخيم في هذا المكان لنستريح، وبعد طلوع الشمس نُكمل"، ثم نصب الخيمة وأدخل أغراضه وأسرته فيها، وهو يتمنى ألا تقذفها الريح التي كانت شديدة وتضرب بقسوة.

ومضى الليل صعبًا عليهم حتى طلعت الشمس، وبمجرد أن وضح المشهد أمامه لمح البيت الصغير الذي وجد فيه الرداء، فشعر بالسرور ودخل على أسرته وقال لهم: "هيَّا سنذهب من هنا".

سألت الزوجة: "إلى أين؟".

"سنذهب إلى البيت".

قال أبو الفداء الجملة فانشرحت صدورهم وقالوا في صوت واحد: "سنذهب إلى البيت؟"، فقال بخجل: "لقد أخطأتم فهمي، فقد قصدت بيت الصحراء الذي وجدت فيه الرداء، فهو قريب من هنا... هناك سنجد الأمان أكثر من هذه الخيمة، وبالقرب منه سنجد النبع الذي تمنيته من قبل، فنحن سنحتاج إلى الماء بالتأكيد".

عاد الحزن إلى قلوبهم، ثم قامت الزوجة وبدأت هي وهو يُحمِّلان أمتعتهم حتى انتهيا، ثم تحركوا إلى البيت الصغير ولمَّا وصلوا دخلوه ووضعوا أغراضهم فيه، وقال أبو الفداء لابنه:

"هيَّا يا بُنى استلقى على هذا الفراش، فهو مريح للغاية وسيساعدك على الشفاء بإذن الله".

قال الصبي: "حسنًا يا أبي"، ثم مشى واستلقى على الفراش كما طلب منه... ومنذ أن دخل أبو الفداء البيت وهو ينظر حوله في كل مكان باحثًا عن رداءٍ آخر، وكان أيضًا يهمس بعديد من الأماني ربما يكتشف أن البيت يحقق أماني من بداخله... ولكنَّ آماله خابت ولم يتحقق أي شيء وبقي الحال كما هو... فلا رداءٌ عاد ولا ظَهَرَ أي جواد، أَمَّا الزوجة والابن والابنة كانوا يتأملون البيت الصخري الصغير، الذي لا يوجد فيه شيء سوى الفراش البسيط المكون من الخوص، ويشعرون باستياء وألم وحزن... حيث كان أدنى حال من البيت الذي كانوا يعيشون فيه قبل الرداء؛ وبعد ثلاثِ ساعات مرت بينما أبو الفداء وأفراد أسرته جالسون صامتون مهمومون، يجهلون ما تُخبئ لهم الأيام القادمة، قالت الابنة:

"أريد أن أشرب يا أمي"، فقامت الأم وتحركت نحو الحقائب لتخرج زجاجة المياه التي وجدتها فارغة، فقالت لأبي الفداء:

"لقد كانت آخر زجاجة ممتلئة معنا ونفدت، هل هناك مكان قريب من هنا نجلب منه الماء؟".

"نعم... فمؤكد أن النبع ما زال موجودًا وهو قريب من هنا؛ سأذهب لملِيء الزجاجات في الحال"، قال أبو الفداء ثم خرج وظل يمشي في الطريق إلى نبع المياه حتى وجده، فابتسم يحمد الله أنه ما زال موجودًا ولم يجف، وملأ منه جميع الزجاجات... ثم سار في طريقه عائدًا إلى البيت، ولمَّا اقترب سمع صوت بكاء يصدر من داخله، فأسرع وحين دخل وجد زوجته وابنته تبكيان، فقال مفزوعا:

"ماذا حدث؟".

أجابت الزوجة: "لقد اختفى حسن".

سألها في دهشة: "ماذا تعني بأنه اختفى؟".

"لا أعرف، ولكنه كان يرتجف من البرد، فنادى علي وقال لي أريد أن أعود إلى البيت يا أمي، وبعدها اختفى ولا أعرف إلى أين ذهب".

سمع أبو الفداء هذا الكلام فبرقت عيناه وعادت ذاكرته شهورًا إلى الوراء، واستحضر الليلة التي قضاها من قبل في البيت الذي هو بداخله الآن، وبعد أن تذكر كل شيء، ابتسم ابتسامة المُحقق الذي كشف سر القضية وقال:

"إذًا هو، إنه الفراش... نعم إنه الفراش".

(٢)

الفراش

غرفة كبيرة بداخل قصر شاهق، حوائطها مرصعة بالذهب والفضة، ورجال بلباس الأمراء جالسون بداخلها على أرائك لَيِّنَة، لن تُشعرك بألم ولو بقيت جالسًا عليها لمائة عام، وأمامهم طاولة عملاقة عليها فاكهة بكافة أنواعها، ولكن وجهوهم عابسة وعيونهم غائرة محاطة بدوائر سوداء، وأجسادهم يبدو عليها الإرهاق، فقال يوسف:

"يا قوم... إن بقينا على حالنا هذا، فسوف نموت كلنا قريبا، لا بد من أن نفعل شيئًا للقضاء على الأرق الذي لا ينتهي، يجب أن نجد الدواء".

تحدث أحدهم: "معك حق، ولكن كيف لنا أن نفعل هذا؟ فقد حاولنا كثيرًا ولم يفلح أي منَّا في إيجاد دواء".

أجاب يوسف: "هناك رجل حكيم يرتحل من بلد لآخر، وقد علمت من أحد التجار أنه يستقر الآن ببيت قريب من هنا، سوف أذهب إليه وأستشيره لَعَلِّي أجد عنده الحل".

قالوا بصوت خفيت يائس: "فلتذهب يا يوسف ربما نجد عنده الدواء".

وبهذه الموافقة التي أقر بها كبار رجال البلد الذي أُطلق عليه (البلد الذي لا ينام) امتطى يوسف حصانه في عصر ذلك اليوم، وانطلق قاصدًا بيت الحكيم ليسأله عن دواء لداء الأرق الذي أعيا الناس وأرهقهم لسنوات.

فذلك اللقب الذي لُقِّبَ به البلد لم يأتِ من كون أهله سعداء ويسهرون يتسامرون، ولكنه أُخِذ من معاناة أهله من الأرق الدائم، الذي جعل النوم أمنية يتمناها الصغير والكبير.

وصل يوسف إلى البيت الصغير الذي يعيش فيه الرجل فرحَّب به وأدخله، ولمَّا جلس سأله الحكيم عن سبب الزيارة، فأجاب يوسف قائلا:

"لقد أتيت إليك من بلد قريب من هنا، وهو البلد الذي لا ينام، وأتمنَّى أن تجد لنا دواء يمحو ذلك الاسم إلى الأبد".

قال الرجل: "لقد سمعت عن ذلك البلد من قبل ولكني أريد أن أعرف تاريخه، أرجوك أخبرني عن ماضيه، ومتى ظهر هذا المرض الغريب الذي أفقد الناس القدرة على النوم".

قال يوسف:

"سأحكي لك... لقد كان البلد فقيرًا وكُنَّا نعاني من الحاجة وضنك العيش، ولم يكن يشعر أحد منَّا بمتعة إلَّا وقت نومه وحلمه بالنعيم، إلى أن جاء يوم استخدم فيه رجل منَّا علمه بعالم الجن، وصنع فراش عجيب يحقق لمن يستلقي عليه ما يتمناه في الواقع، وليس مجرد حلم ينتهي باستيقاظه... وفي وجود الفراش عشنا حياة الترف والنعيم، ولكن بعد شهور ظهر داء الأرق الذي انتشر واستمر لسنوات، ولم يستطع أي منا إيجاد دواء له حتى بقوة الفراش العجيبة... وهذا ما أتى بي إلى هنا، فقد أتيت على أمل أن تجد حَلًّا يخلصنا من ذلك العذاب".

تأمل الرجل لثوانٍ ثم أومأ برأسه مُوَافِقًا وهو يقول: "سوف أذهب معك إلى هناك، لعل الله يوفقني في إيجاد الدواء".

وبهذه الموافقة ذهب الحكيم مع يوسف إلى بلده وعاش بين الناس، يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون، وقد أحزنته رؤية أناس في حال غريب، لديهم كل شيء يمكن أن يتمناه إنسان في الدنيا ولكنهم بائسون، فالوجوه تحمل كآبة قتلت الابتسامة، وجعلت الضحك ذكرى جميلة ماضية، والأجساد هزيلة بالكاد تمشي بداخل بيوتها، شهيتهم مفقودة إلى الطعام والمتعة، ولم يكن أحد منهم يأكل إلا القليل الذي يُبقيه على قيد الحياة، ومن هنا لاحظ الرجل أمرًا مريبًا.

فقد انقطع الناس عن تناول أنواع الطعام المختلفة إلَّا بعض أنواع الفاكهة ومن ضمنها نوع فاكهة غريب، لم يرَ أو يسمع عنه من قبل، والطعم كان أيضًا مختلفًا تمامًا، ولـمَّا سأل عنها أجابه يوسف قائلًا:

"بعد ظهور الفراش في حياتنا تمنينا ما كان ينقصنا لنعيش حياة رغدة كالملوك، وبعد فترة وجيزة بدأ الناس في تمني أشياء غريبة تسببت في حوادث مأساوية، وقد بدأت تلك الحوادث حين استيقظ رجل يُدعى سعد ذات صباح ورأى شيئًا أرعبه... فعلى مسافة ليست ببعيدة رأى عملاقًا يتجول فظن

أنه سيهجم على البلد ومن فيه، وقبل أن يتحدث إلى أحد ركض نحو محل حفظ الفراش–وهو محل أنشأناه خصيصًا ليُحفظ فيه الفراش، ويزوره الناس من أجل تحقيق أحلامهم– واستلقى عليه وتمنَّى أن تسقط صخرة كبيرة على رأس العملاق وتقضي عليه، وتحققت الأمنية بالفعل... ولكن المصيبة اكتُشفت حين ذهب سعد نحو جثة العملاق المقتول ونظر إلى وجهه.

فقد اكتشف أنه ابن عمه سالم، وبعدها علم من أفراد أسرة سالم أنه تمنى أن يصبح عملاقا، وقد أدخل ما حدث البلد في حزن وخصومة بين أفراد الأسرتين كادت أن تصل إلى الحرب، لولا أن الحكمة أطفئت نيران الغضب وتم الصلح بينهما.

وكانت هناك حادثة أخرى حين فقدت فتاة بعمر الثامنة عشرة عقلها بشكل مفاجئ، ولـمَّا سأل الناس عن السبب، أخبرتنا الأم أنها كانت تشعر بالوحدة بعد أن تخاصمت مع صديقتها المقربة، فذهبت إلى الفراش وتمنت الحصول على

صديقة من عالم الجن، وبعدها بدأ سلوكها يتغير حتى فقدت عقلها وأصبحت مجنونة.

أمَّا عن الفاكهة الغريبة التي سألت عنها، فهي أيضًا إحدى الأمنيات التي تمنتها امرأة من أهل البلد، ولا أحد يعرف اسمها الحقيقي أو من أين جاءت، فالسيدة التي أحضرتها أخبرتنا بأن اسمها "تاموز"، وَإِنَّهَا أتت من بلد أعجمي بعيد عن هنا، والناس لم يَهْتَمُّوا بمعرفة حقيقتها لأنها فاكهة لذيذة طعمها لا يُقاوم، والكل أصبح يعشقها ويأكل منها بشراهة، والآن هي أكثر فاكهة تُزرع في كل المزارع".

بعد سماع الحكيم لتلك الأحداث الغريبة لم يتأثر بشدة، حيث أدرك أن قوة الفراش وتأثيرها على النفس قد تفعل أكثر من هذا، وصبَّ تركيزه على الفاكهة التي تذوقها وشعر بحلاوة مذاق لا يُقاوم، واستمر يأكل منها لأيام حتى بدأت أعراض الأرق تظهر إليه، وبعد شهر استمر فيه يأكل تلك الفاكهة كل يوم، لم يعد النوم يزور جفونه إلا نادرا، والزيارة تكون عابرة لا تستمر سوى لدقائق معدودة... فعلمَ دون ريب أن

تلك الفاكهة الغريبة، هي السبب في الأرق الذي عانى الناس منه لسنوات.

مع إخبار الناس بالنتيجة، لم يصدقوا أن هذا هو السبب، فإنها مجرد فاكهة لذيذة وحسب، وقد أخبره يوسف بأن الناس جربت الامتناع عن أكل كل أنواع الفواكه من قبل ولم يفلح الأمر، ولكن الرجل الحكيم أصرَّ على رأيه، وطلب منهم تجربة الامتناع عن أكلها لفترة من الزمن، مع شرب أحد المشروبات العشبية التي تنقي الدماء من أثر تلك الفاكهة؛ فوافقوا وامتنعوا تمامًا عن تناولها، حتى بدأ النوم السريع العميق يعود إلى جفونهم ونجح الأمر مع المواصلة إلى أن قضوا على الأرق تماما، وبهذا الانتصار أقاموا احتفالًا كبيرا؛ وكُرِّمَ الرجل الحكيم على ما قدمه من أجلهم... وعرفانًا منهم بفضله قرروا أن يعطوه فراش الأحلام كهدية، ولم يعترض أي منهم على هذا القرار، حيث شعروا بأنَّ النوم الذي سيُغطى جفونهم كل ليلة، أكثر قيمة من فراش يجلب لهم ما يُمتع قلوبهم في الواقع، ولكن لا يقدر على جلب النوم الذي هو البوابة لتجدد المتعة، والملجأ الآمن للاستشفاء من هموم الدنيا.

وفي أثناء تلك السعادة التي عاشها الناس، ومع هذا الحدث الهام، غُيِّر اسم البلد من (البلد الذي لا ينام) إلى (بلد الوجوه الباسمة) حيث أصبحت الابتسامة تُزين وجوههم بعد حصولهم على قسط كافٍ وممتع من النوم.

* * *

بعد انتهاء مهمة الحكيم حمل الفراش وغادر عائدًا إلى بيته الذي يعيش فيه وحده، وهو البيت الصخري الصغير الذي وجد فيه أبو الفداء الرداء بعد قرون عديدة، اختفت فيهم بلدان وظهرت أخرى... ورغم أن الحكيم كان زاهدًا في الدنيا إلَّا أن إغراء قوة الفراش دفعه للاستلقاء عليه والتمني، وقد كانت أولى أمنياته هي الحصول على جناحين والطيران... وقد تحققت الأمنية وأصبح قادرًا على الطيران والتحليق في السماء... ولكن حكمته لم تكن كافية لتجعله يتجنب عواقب أمنية كتلك، فلم تمر سوى دقائق على طيرانه حتى هبت ريح عاصفة أفقدته السيطرة على جناحيه، واشتدت أكثر لتهوي به في مكان سحيق.

وبموت الحكيم بقي الفراش في بيته وحيدًا بلا صاحب، وبمرور الزمن غُيِّر اسم البلد مرة أخرى ليصبح أرض الروايات، وقد أُخذ الاسم من اشتهار أهله بتأليف القصص والروايات بشتَّى أنواعها، وهذه الموهبة وُلدت أيضًا بعد انتهاء عصر الفراش وحصول الناس على النوم المريح، الذي كان السبب في إلهامهم وإثراء مخيلاتهم، بعيدًا عن المادية الصارخة التي عاشوا فيها في زمن فراش الأحلام.

وذات ليلة كان هناك رجل يُدعى عثمان جالسًا في بيته يقرأ إحدى الروايات، فزاره صديق وأخبره أن الملك قد أمر بقتله، وإن لم يهرب سيُقبض عليه ويُعدم، فلم ينتظر بعد سماعه هذا النبأ وهرب إلى حيث لا يدري، وظل يمشي حتى وجد البيت فدخله ليختبئ... وكان الليل قد حل بظلامٍ دامس، فأشعل المصباح وجلس على الفراش الذي لم يكن هناك شيئًا بالبيت سواه كما هو الحال الآن، وبعد أن شعر ببعض الطمأنينة أخرج من جعبته إحدى الروايات بعنوان "الرداء"، وقد كانت تحكي عن ردائٍ يحقق الأماني لمن يرتديه، وهي مستوحاة من قصة فراش الأحلام، بعد أن تحولت إلى أسطورة في اعتقاد الناس مع الزمن، وَبُدِّلَ ليصير رداء بدلًا من الفراش، ومع

انتهاءه من قراءة القصة تنهد واستلقى على جانبه الأيمن لينام... وقبل أن يغمض جفنه قال:

"يا ليتني أجد ذلك الرداء الذي يحقق الأماني، فكم أنا بحاجة إليه الآن"، ثم غرق في سبات عميق.

وَبَقِيَ عثمان نائمًا حتى أشرقت الشمس، وحين استيقظ وقام من على فراشه ليخرج ويبحث عن شيء يأكله، اصطدمت عيناه برؤية رداء له الشكل نفسه، الذي كان مرسومًا على الرواية التي قرأها قبل النوم، ما جعله يقول مذهولا:

"ما هذا! هل الأمنية تحققت وهذا هو رداء الأحلام؟"، ثم أخذ يمد يده ببطء من أجل الإمساك به وتجربته، ومن داخله أمانٍ بأن يكون هو بالفعل، ومخاوف من أن يكون نائمًا يحلم، أو أن مرض الوهم قد أصابه وجعله يتخيل ما لا وجود له... وحين صار بين الرداء ويده كما بين رموش عينيه... اقتحم الجنود البيت.

فزِع عثمان وجذب يده ناحية جسده تاركًا الرداء، ثم نظر إليهم بعينين شاخصتين مرعوبتين... فأمرهم قائدهم بالقبض عليه، ليندفع نحوه ثلاثة منهم ويمسكونه ويجرونه إلى خارج

البيت، وهو ينظر إلى الرداء متحسرًا ويتوسل إليهم قائلا: "انتظروا سوف آخذ ردائي، انتظروا سوف آخذه فقط أرجوكم". ولكنهم لم ينصتوا لتوسلاته واقتادوه معهم ليلقى مصيره المنتظر، وهو ما زال يصرخ ويتوسل بأن يسمحوا له بأخذ الرداء، الذي سيكون لاحقًا من نصيب أبي الفداء.

(٣)

الرداء (الفترة الثانية)

في البيت يقف أبو الفداء سعيدًا بأنه عرف سر الفراش، الذي كان في الأصل هو مبعث القوة، وزوجته التي لم تفهم تقف أمامه وتسأله: "ماذا تقصد بكلامك هذا؟ ولماذا تبتسم هكذا؟".

أجاب قائلًا: "لقد تذكرت ما حدث من قبل، فأنا عندما قضيت ليلتي في هذا البيت، نمت على هذا الفراش، ولأن البرد كان قارسًا تمنيت أن أجد حطبا، وبمجرد أن تحركت لأقوم وأبحث عن حطب، وجدته بجانبي ولم أعرف من أين أتى... ولكني الآن عرفت أن الحطب جاء بقوة الفراش التي تُعادل قوة الرداء... كمْ كنت غَبِيًّا، كيف قضيت كل تلك الفترة دون التفكير في هذا الحدث، كان يجب أن أتذكر أن الأماني بدأت منذ ظهور الحطب قبل ارتدائي الرداء. كيف نسيت ولم أُفكر في هذا الأمر طوال المدة الماضية، يبدو أن فرحة الرداء أشبعت نفسي وحزني عليه أخذ عقلي".

قالت الزوجة التي كانت تستمع لكلامه وتحليله لما حدث معه، ولا تفكر في شيء سوى ابنها المختفي: "هذا يعني أن حسن قد عاد إلى البيت، هل هذا صحيح؟".

"نعم بالتأكيد وعلينا أن نجرب الآن"، قالها ثم اندفع وهو في قمة الشوق والترقب... واستلقى على الفراش وقال: "أتمنى الحصول على الرداء الذي يخفيه سالم الآن"، لتتحقق الأمنية على الفور ويعود الرداء إليه بقوته كاملة ويترك صندوق سالم فارغًا، وتكتمل فرحة أبي الفداء الذي قال وعلى وجهه ابتسامة النصر: "الحمد لله لقد عاد الرداء، وسيرجع الحق لأصحابه، كمْ أشفق عليك أيها الغبي سالم أنت وأخوك الحالم".

قالت الزوجة وهي سعيدة بسعادة أبي الفداء التي ملئت المكان بهجة: "الحمد لله، ولكن يا رجل أريد أن أرى ابني الذي اختفى". فتحدث وهو ما زال مبتسمًا وفرحًا كطفل حصل على جبل من الحلوى: "سامحيني... فقد ظللتُ أحلم بهذا اليوم لشهور مرت علَيّ كأنها مئات السنوات، ولهذا جعلته أولًا... لا تقلقي سأتمنى هذا الآن"، ثم ارتدى الرداء

وكأنه يريد أن يجربه أو كان متشوقًا له... فالمنطق يقول إن الفراش كان يكفي ما دام أنه يحقق الأماني بالقوة نفسها، ولكنه ارتداه لحاجة في نفسه وقال:

"أتمنَّى أن تعود ابنتي وزوجتي إلى البيت"، فتحققت الأمنية وعادتا إلى البيت، أمَّا هو فقال في نفسه:

"والآن يجب أن نعاقب الخائن ونُرجع الحقوق"، وقبل أن ينطق بالمزيد من الأماني قرر طي الفراش وحمله معه كي لا يتركه وحيدًا، ولكنه بمجرد أن انحنى تجاهه شعر بأن أرض البيت تهتز، فجرى بسرعة إلى الخارج، وفي ثوانٍ انهدم البيت وتساوى بالأرض وكأنها قد ابتلعته... فتساءل برعب:

"ما الذي جرى، لمَ حدث هذا؟!". ثم أخذ يتأمل المشهد لدقيقة وقال بعد أن هدأت أعصابه قليلًا:

"ما حدث قد حدث... والحمد لله أنني لحقت الفراش قبل أن يضيع هو الآخر ويضيع معه حلم استعادة الرداء إلى الأبد، والآن يجب أن أعود وأُبين للناس الحقيقة وأُعاقب سالم".

قال هذا الكلام بقلب راضٍ وهو لا يعلم أن السبب فيما حدث هو الرجل الحكيم الذي كان يسكن البيت، فقد ألهمته حكمته بأن يتمنى زوال الفراش بعد خمس أمنيات، حتى يتجنب سيطرة قوته على عقله وقلبه، ولأن أول أمنية كانت الطيران، وهي الأمنية التي قضت عليه، تبقت أربع أمنيات، استهلك عثمان منهن واحدة حين تمنى الرداء للمرة الأولى، وواحدة كانت من نصيب الحطب الذي تمناه أبو الفداء، وواحدة كانت لابنه حسن أعادته إلى بيته، والأخيرة التي أعاد بها الرداء.

عقد العزم على الذهاب، ومكث جالسًا أمام محيط البيت المنهدم يفكر فيما سيفعله فور عودته، في مشهدٍ يشبه المشهد الأول حين عثر على الرداء، مع الاختلاف في المشاعر والنيات التي غلب عليها الانتقام والحذر... وبعد التفكير تمنَّى أن يُجرَّد سالم من جنوده ثم يُقيد ويُلقى أسفل الهضبة، والأمنية الرابعة كانت أن يُنادي صوت في الناس بأن يجتمعوا هناك لانتظار أمرٍ هام... وتحققت الأماني على الفور وصار جنود سالم يتطايرون، ويعود كل واحد منهم لمكانه الذي كان فيه قبل أن يجلبه للعمل عنده.

فمنهم من عاد لبلاده البعيدة التي أُحضر منها بقوة الرداء، ومنهم من عاد لبيته بالبلد، أمَّا سالم فقد تكبَّلَ ثم طار وهبط عند الهضبة السوداء... وصار الصوت الذي يُنادي في الناس بأن يجتمعوا عند الهضبة، يسمعه الجميع فيهرولون ناحيتها وهم متعجبون مما يحدث، وقد ازدادت الدهشة عندما رأوا سالم مقيدًا ومُلقى على الأرض هناك، ومن ضمن هؤلاء بالطبع كان شاهين الذي فزع وتملكه الرعب حين رأى منظر أخيه البائس، فتركه مبتعدًا عن المكان بعد أن عقد العزم على الهروب من البلد.

أمَّا أبو الفداء فقد ذهب منطلقًا بحصانه، ناسيًا أن يتمنَّى العودة ليعود في الحال كما حدث في المرة السابقة، وحين وصل ورآه الناس بدأت الأسئلة: "ما الذي يحدث يا أبا الفداء؟ لماذا سالم مُقيدًا هكذا؟ وما هذا الرداء الذي ترتديه؟".

قال أبو الفداء ساخرًا: "لقد أصبح سالم بغير ألقاب، فلا ملك ولا حتى سيد، بعد لحظة واحدة من سقوطه تحت

الأقدام" ... حَنى الناس رؤوسهم شاعرين بالخجل وقليل منهم شعر بالعار، أَمَّا هو فقد أشار إلى سالم وأكمل قائلا:

"إن كنتم تريدون معرفة الذي يحدث فاسألوه، ها هو أمامكم، هيَّا تكلم أيها الملك سالم وأخبرهم بكل شيء، فلم يعد هناك سبيل لأي خداع أو مراوغة... أخبرهم بما فعلته أنت وأخوك الخبيث شاهين، أَمْ تريد أن أتحدث أنا؟".

طأطأ سالم رأسه ولم ينطق بكلمة فقال أبو الفداء:

"هذا الرجل هو من جعل أرديتنا تختفي حتى يتحكم في البلد... وهو من دبر تلك السرقة الغريبة ليدب الخوف فينا ونرضى بكلامه وبحكمه، وهو أيضًا من جعل اسمه يحصد أغلبية الأصوات، وهذا هو الأمر الغبي الذي كشف لعبته... فقد كتبت في ورقتي اسمًا آخر ثم رأيته قد تغير وصار اسمه المكتوب، ومن هنا عرفت أنه الخائن.

ورغم أنني عرفت هذا منذ فترة، إلا أن خشيتي من حدوث فتنة في البلد جعلتني ألتزم الصمت، ولكني عندما رأيت الظلم يستفحل، حتى وصل لبناء سجن ليسجن فيه البلد بأكمله، تكلمت... وبدأت بالكلام معه وطلبت منه طلبًا بسيطا،

وهو أن يكون حَاكِمٌ عَادِلٌ ولا يأكل أموال الناس ظلما، ويكف عن إذلالهم وإعادتهم إلى حياة الفقر بعد أن تذوقوا لذة النعيم، ولكنه لم يستجب، وأمر بحبسي ثم تركني بعد دقائق.

وعندما خرجت تكلمت مع صالح وبكر وآخرون، ظنًّا مني أنهم سيقفون بجانبي لمواجهته، فوجدت منهم الخوف والحذر والعجز عن فعل شيء، وبعد ذلك عرفت لماذا أطلق سراحي بعد دقائق من حبسي... فقد أشاع بينكم كذبة فقداني لعقلي، وتوهمي بوجود رداء يخفيه، وليس هذا وحسب... بل إنه استخدم قوة الرداء لبث الوهم والهلوسة في عقلي حتى جعلني على وشك فقدانه بالفعل، ورغم أن كثير منكم صدَّق كلامه واتبع خطاه إلا أنني سامحت الجميع وكأن شيئًا لم يكن؛ وها هو الآن أمامكم لتعاقبوه على جرائمه".

أخذ الناس الغاضبون ينظرون إلى سالم بغيظ وكره شديد، وأمطروه بعبارات لاذعات تدمر أي ذرة عزة باقية، ثم نظروا إلى أبي الفداء وسألوه: "ولكن كيف استعدت الرداء؟".

"في المكان الذي وجدت الرداء فيه... كان هناك فراش بقوة مماثلة، منه استعدت الرداء وجرَّدته من جنوده، وقيَّدته كما ترونه الآن".

تحدث سالم في حزن وقهر: "هذا كله بسبب أخي شاهين... هو من أغواني وجعلني أفعل ما فعلت، لقد قلت له مرارًا وتكرارًا أننا نظلم الناس، ولكنه خدعني بكلام عن خطورة الرداء وقوته، وعن الحياة الطبيعية التي يجب أن نعيشها... فأرجوكم سامحوني، اغفروا لي خطيئتي، ولتكن الأخوة والصداقة التي بيننا شفاعة لي".

قالوا جميعًا والغضب في عيونهم كنيران البركان: "وهل أنت صغير كي تتبع أخاك... لماذا أطعته وخنتنا، ولماذا لم ترع أنت الصداقة والإخوة التي كانت بينك وبيننا؟".

توسل إليهم قائلا: "يا إخواني سامحوني، فقد عاقبني الله... وها أنا الآن أمامكم أطلب الصفح، أنا لا أريد منكم أي شيء سوى السماح لي بأن أقضي ما تبقى من حياتي في بيتي، لا أريد الموت سجينًا كالمجرمين".

تحدث أبو الفداء مستنكرا: "تقول إنك لا تريد أن تموت كالمجرمين بداخل السجن! هذا طلب غريب، فإن لم تكن مُجْرِمًا، كيف تُعرِّف المجرم إذًا؟ فقد خنت وسلبت وقتلت، فماذا كنت تريد أن تفعل أكثر حتى تصبح مُجْرِمًا؟ وتقول أيضًا إن شاهين هو السبب"، ثم ابتسم ابتسامة السخرية وأكمل قائلا: "ما الذي قاله لك؟ وكيف أقنعك أيها الكبير العاقل؟".

أجاب وهو يجاهد لمنع اندفاع الدموع التي كادت تحرق عينيه:

"لقد أقنعني بأن هناك خطرًا في امتلاك كل بيت لشيء كالرداء، وأن البلد لا يمكن أن يستمر هكذا بلا فرد يحكمه، فقد كنت أخشى من أن يقع الرداء في يد عدو لنا، ويجردنا من قوتنا ويستولي على البلد بأكمله".

قال أبو الفداء ساخرا: "نعم... أنا أتفهم هذا جيدًا، لقد خشيت أن يستولي عليه الأعداء فقررت الاستيلاء أنت عليه... أليس كذلك؟".

لم ينطق سالم بكلمة يرد بها على سخرية أبي الفداء الذي أكمل قائلا:

"اسمعني جيدًا يا رجل... كل ما قلته هي أعذار أقبح من ذنوب، وأنت لم تكن تعمل لصالحنا كما تدَّعي، فالأمر أعجبك وأعجبتك السيطرة والتجبر والطغيان الذي أحبه هواك... ولكنك خُدعت، فشاهين، ذلك الولد اللئيم، لم يكن يخطط وينفذ كل ذلك من أجلك أنت، فالكل يعرفه ويعرف أنه خبيث أناني... ولأريك ما سيجعلك تتحسر أكثر سأتمنى أن نرى ما كان يخطط له شاهين".

بهذه الأمنية ظهرت على الفور صورة شاهين واضحة أمام أعين الناس، وهو يتحدث مع زوجته ويقول لها:

"لا تقلقي، فأنا بالطبع لم أفعل كل هذا من أجل أخي كما تظنين... لقد جعلته في الواجهة حتى يبدو الأمر طبيعيًّا أمام الناس.

هو الكبير الذي كان يصلح للظهور في الواجهة، وتولي الحكم من دون أن يشك فيه أحد... ولكن بالطبع بعد أن يموت سأصبح أنا الأجدر بالحكم".

سألت الزوجة مستنكرة عابسة: "وهل ستنتظر حتى يموت؟"، فأجاب مبتسمًا ابتسامته التي أعيت العيون والمرايا: "بالطبع

لا، فلدي خطة أنفذها... فمنذ فترة وأنا أعطيه شرابًا مُمرضًا صنعه رجل ماهر، وذلك الشراب ذو الطعم اللذيذ الذي يعشقه، ما هو إلا سم بطيء المفعول يدمر الجسد، وعما قريب سيمرض ويموت، وأظن أن هذا ليس ببعيد، فأعراض المرض قد بدأت في الظهور عليه، فهو لا يأكل إلا القليل، وقد نقص وزنه إلى النصف، وفي الحقيقة ما أفعله معه لصالحه... فهو بائس وكئيب، يكره المتعة ولا يشعر بالرغبة في الحياة، وما عاشه من عزة كحاكم كاف كي يموت راضيًا فخورا، ويقابل زوجته التي يشتاق لرؤياها، وليترك لي الحكم كي أحقق حلمي بتكوين جيش كبير، والسيطرة على كل بلدان العالم لأصبح حاكم الأرض الأعلى، وليس حاكم لبلد صغير هزيل كهذا".

بهذه الكلمات اختفت الصورة وعاد أبو الفداء للحديث قائلا: "ها أنت قد رأيت كيف كان يخطط لك أخوك العزيز، الذي كنت تأويه في منزلك هو وزوجته وابنه... ويكفي أنك ترى جميع الناس ولا تراه، فمؤكد أنه هرب وتركك وحدك لتواجه العقاب".

وبتأنيب أبي الفداء له ورؤيته لمشهد أخيه وما قاله، لم يستطع التحمل وأجهش بالبكاء والناس أمامه ينظرون إليه بمقت ورغبة انتقام، وبعضهم شعر بالشفقة تجاهه، أمَّا أبو الفداء فأضاف:

"مهما بكيت وتوسلت لا أستطيع الصفح عنك، فالأمر ليس متعلقًا بالرداء وحسب، فأموال الناس التي سُرقت ودماء الشاب زهران التي سالت تلطخ يدك أنت وأخوك، ولذلك ستُلقى أنت وهو في السجن وبعدها سنتشاور لنُقر العقاب المُستحق... ولهذا أتمنى أن تُلقى أنت وأخوك في السجن الآن". وبهذه الأمنية حُمِل سالم وَأُلْقِيَ به في السجن هو وشاهين؛ ثم ظهر السرور على الناس وصارت ابتسامة كل منهم مشرقة كشمس الظهيرة، وقالوا لأبي الفداء في لهفة: "والآن أعد لنا أرديتنا أيها البطل".

نظر إليهم بابتسامة وقال: "حسنًا... ستقومون غدًا صباحًا من نومكم لتجدوا الأردية قد عادت من جديد".

قال أحدهم: "ولماذا غدًا؟! نريدها اليوم"، فردَّ آخر عليه: "يا رجل اصبر... هل كنت تحلم بهذا"، فتراجع الرجل قائلًا:

"حسنًا، معك حق"، وأضاف الحاضرون: "شكرا لك يا أفضل من فينا". ثم ذهبوا إلى بيوتهم وهم في قمة السعادة بعودة قائمة الأحلام التي حُرقت بسبب اختفاء الأردية، إلَّا رجل واحد ظل واقفًا مطأطأ الرأس ويبدو عليه مظاهر الخجل، وكان ذلك الرجل هو نعمان، فنظر إليه أبو الفداء وسأله:

"أتريد أن تقول شيئًا؟".

أجاب بصوت خفيت: "أظن أنك لن تمنحني رداءً جديدًا كما ستفعل معهم، أليس كذلك؟".

قال أبو الفداء بحدة:

"اسمعني يا نعمان... سأتكلم معك بصراحة ووضوح، أنا لم أنسَ ما فعلته، فإن كان الكل صدَّق أنني مجنون، كان يجب ألَّا تصدق أنت بالتحديد، وحتى إن صدقت، كان يجب أن تمتنع عن المجيء إليّ والسخرية مني كما فعلت... ورغم أني كما قلت لم أنسَ ما حدث، إلَّا أنني سأعاملك بأخلاقي، ولن أفعل مثلك، وسأعطيك الرداء كبقية الناس، رغم أنك كنت أول من رأيته قد استخدمه بصورة خاطئة، حين غرتك

قوته ونسيت قوة خالقه... فأنت أول من رأيت خطأه وهو الكفر بنعمة الله بنسيان قدرته، ثم زدت على هذا حين أتيت وسخرت منِّي دون خجل أو مراعاة لأي شيء... ولكن كما قلت لك، سوف أتعامل معك بأخلاقي وسأعطيك الرداء مثلهم، فلتذهب الآن ولتنتظر عودة الرداء في الصباح".

أنهى أبو الفداء كلامه فوجد نعمان ما زال يقف صامتًا فأعاد عليه السؤال:

"أتريد أن تقول شيئًا؟".

وكان نعمان يشعر بنار تستعر في قلبه من قسوة الموقف الذي يمر به... فهو مقهور من تأنيب أبي الفداء له بهذا الشكل، ولكنه لم يستطع قول جملة "لا أريد الرداء"، فهو بالطبع يريده... ما جعله يتحامل على نفسه ويجيب قائلا: "لا، لا أريد شيئًا... شكرًا لك يا سيد أبي الفداء، يا كريم الخُلق"، ثم ذهب إلى بيته وهو يتمزق من الغيظ.

* * *

مرَّ النهار ولحقه الليل بالمنتظرين ونفَّذَ أبو الفداء ما وعد الناس به... فحين استيقظ من استطاع النوم وجرى نحو المكان الذي كان يحفظ فيه الرداء وجد ما أسرَّه، وبالطبع عاش قبله تلك اللحظة السعيدة مَن ظلَّ مستيقظًا ينتظر عودة الرداء... ولمَّا ذهبوا إلى أبي الفداء كي يشكروه على الوفاء بوعده، قالت لهم زوجته:

"لقد سافر أبو الفداء وقال إنه سيقضي بعض الوقت في أحد الأماكن، ولكن لم يخبر أحد بالمكان الذي ذهب إليه، أو بموعد عودته".

أمَّا نعمان فقد كان الأشد فرحًا بالحصول على رداء كما وعده أبو الفداء، ولم يصبر ولو لدقائق كي يعطي لنفسه فرصة لإعادة التفكير وإمكانية التراجع، فارتداه وقال:

"أتمنى أن يلتهم أبو الفداء اليوم أسدٌ لعينٌ ويمزق لحمه، ولا يُبقي منه قطعة سليمة، وأريد أن يظهر أمامي هذا المشهد الآن". وبهذه الأمنية التي نبعت من قلب نعمان الغاضب على أبي الفداء، لم يحدث ما كان يحدث من قبل بأن تتحقق الأمنية في لحظتها، ولكن شيئًا آخر قد حدث.

فإنَّ الرداء قد اشتعل.

الأمر الذي أفزع نعمان وجعله يخلعه ويُلقي به على الأرض... وبعد أن ألقاه ظلَّ ينظر إليه والنار تأكله حتى احترق بالكامل، فازداد الغيظ في قلبه وقال وهو يكاد يموت من شدة الانفعال والمقت:

"أبو الفداء الخبيث، لقد خدعني... كنت أعلم أنه سيخدعني ويُرسل إليَّ رداءً مزيفًا، يا له من ملعون". ثم ضرب أحد أواني الزينة بيده فطار وارتطم بالأرض وتهشم مُصدرًا صوتًا عاليًا... ولمَّا سمع الصوت ابنه الصغير دخل عليه الغرفة، واقترب منه وسأله قائلًا بعد أن وضع يده على كتفه الأيمن:

"ماذا حدث يا أبي؟"، فدفعه نعمان بيده في صدره دفعة قوية وهو يقول: "اغرب عن وجهي الآن"، ما جعل الفتى الهزيل يطير من شدة الضربة أمتارًا إلى الوراء، ثم يسقط على الأرض ويفقد الوعي على الفور... وحين رآه نعمان اندفع نحوه مفزوعًا وأخذ يحاول إفاقته وهو يقول:

"ماذا حدث لك يا بُني... هيَّا انهض هيَّا انهض"، ولكن الولد لم يُبدِ أي استجابة... واستمر يحاول لثوانٍ والصغير هامدًا تمامًا.

ببطءٍ أخذ يقترب بيده من صدره وهي ترتعد، وبوضعها على مكان القلب لم يشعر بالنبض، فصار على يقين أنه فارق الحياة.

مع قضائه على ابنه الوحيد أصابته نوبة ضحك هيستيرية رافقتها بعض الكلمات:

"لقد قتلت ابني بيدي، لقد قتلت ابني الوحيد بيدي".
ودخلت عليه زوجته لترى الابن المُلقىَ على الأرض وأمامه نعمان جاثيًا، وقد تحول من الضحك إلى البكاء، لتسأل في فزع عمَّا حدث فيجيب نعمان وهو يمطر جسد الصغير دموعا:

"لقد مات، لقد مات بيدي... أنا قتلته". وبهذه الكلمات القاتلات فقدت الأم وعيها وسقطت بجانب ابنها وواصل نعمان البكاء.

وهكذا كانت نهاية أُسرة في لحظة شيطانية ظالمة... فأبو الفداء لم يخدعه كما ظن؛ فما فعله أنه تمنَّى عودة الأردية ولكنها عودة مشروطة بما يتمناه المرء... فإن تمنَّى شيء فيه شر يفقد رداؤه إلى الأبد، حتى أنه جعل هذا الشرط على نفسه... وكان هذا هو سبب سفره واختفاءه عن الأنظار؛ فقد تيقن من أن الناس ستلجأ إليه حين تفقد أرديتها ولذا فضَّل الابتعاد، تجنبًا للمجادلة.

* * *

بعد مرور أسبوع على اليوم الذي حدث فيه ما حدث لنعمان وأسرته، والذي أدخل الناس في حزن آخر، حاوط الغموض سببه كما حدث يوم مقتل زهران، كان هلال جالسًا مع صديقه، فقال له الصديق بعجب:

"يا رجل هل أنت أحمق! لمَ تشغل بالك بامرأة متزوجة ولديها أولاد وأكبر منك سِنًّا، وأمامك من هنَّ أجمل منها وينتظرن كلمة منك؟ ... أنت تبحث عن المصاعب وحسب".

قال هلال: "لا أقدر يا أخي، فعقلي سيصيبه الجنون... أعشقها وأريدها لي بأي طريقة".

قال صديقه ساخرًا: "وماذا ستفعل؟ هل ستذهب وتطلب من زوجها أن يزوجها لك؟"، ثم انفجر ضحكًا، فاستشاط هلال غضبًا وقال: "هل تسخر مني، يبدو أنني أخطأت بإفصاحي عن هذا الأمر لِأَبْلَه سخيف مثلك، أُغرب عن وجهي، لقد كرهت رؤية وجهك... هيَّا اذهب من هنا".

قال صديقه باستياء: "ما بك، هل ستُفرغ غضبك عليّ"، ثم قام وهو يقول: "سأذهب ولن أعود إلى هنا من جديد، ولتبقى أنت مع أحلامك اللعينة حتى تفقد عقلك".

قال هلال: "هذا أفضل، فأنا لا أريد أن أرى وجهك مرة أخرى".

"حسنًا، لن ترى وجهي مجددًا"، قال الصديق ثم مشى ذاهبًا إلى بيته وهو ماقت عليه... أمَّا هلال فظل يسأل نفسه ماذا عليه أن يفعل كي ينال المرأة التي شغفته حُبًّا، حتى استسلم لفكرة قاومها كثيرا وَأَبَى الشيطان أن يتخلى عن بثها في عقله، فذهب إلى حيث يوجد الرداء ليرتديه ويتمنى قائلا:

"أتمنَّى أن يُقتل خالد اليوم"، وكان خالد هو زوج المرأة التي يريد أن يتزوجها... وبتلك الأمنية وجد ما حدث مع نعمان

يحدث معه بالضبط، حيث اشتعل الرداء... ففزع وخلعه وألقاه على الأرض وهو يقول: "ما هذا، ماذا حدث!؟"، وظلَّت النار تأكله حتى صار رمادًا وهو يقف أمامه متصلبًا ينظر إليه بذهول... ثم خرج مسرعًا من بيته قاصدًا بيت أبي الفداء، وعندما وصل قالت له زوجته: "والله يا أخي أبو الفداء لم يرجع حتى الآن".

فسألها: "ومتى سيعود؟".

"لا أعرف"، قالتها الزوجة فقال هلال المفجوع المرتبك: "حسنًا، حسنًا... أرجوكِ أن تبلغيه أنني أُريده في أمر هام عندما يعود".

قالت: "حسنًا، سوف أخبره"، وبهذا الرد مشى هلال عاجزًا عن تفسير ما حدث، واقتادته قدماه إلى صديقه الذي كان معه منذ قليل وحين وصل سأله: "لماذا أتيت مجددًا؟ ألم تقل منذ دقائق إنك لا تريد رؤيتي؟".

قال هلال: "هذا ليس الوقت المناسب لمثل هذا الكلام، هناك أمرٌ هَامٌّ قد حدث".

سأله الصديق بترقب: "ما هو هذا الأمر الهام؟".

"بعد أن ذهبت أنت، ارتديت أنا الرداء وتمنيت أمنية، وانتظرت تحققها... ولكني وجدت الرداء قد اشتعل واحترق حتى صار رماد في ثوانٍ".

بهذه الإجابة فزعَ الصديق وقال: "انتظر لحظة"، ثم ذهب ليرى هل حدث لردائه أيضًا الشيء نفسه أم لا... ولمَّا اطمأن أنَّ رداءه بخير أخذ نفسًا عميقًا وعاد إلى هلال وقال: "لقد وجدت ردائي كما هو".

قال هلال في دهشة: "إذًا لقد حدث هذا لردائي فقط، لمَ يا ترى؟".

"لا أعرف، ولكن أخبرني... ما هي تلك الأمنية التي تمنيتها؟".

سأل الصديق فأربك هلال الذي قال: "تمنيت أمنية وحسب".

قال صديقه مستنكرًا: "أعرف أنها أمنية وحسب ولكن أريد أن أعرفها... أمْ أنها سر؟!".

قال هلال في غضب: "هل ينقصني أن تحقق معي، قلت لك أمنية وحسب... كما يتمنَّى أي إنسان".

قال صديقه بغيظ: "ما دمت لا تريد أن تقولها، لماذا أتيت إلى هنا؟ ولماذا تسألني عما حدث لك!؟".

"نعم، لقد أخطأت حين جئت إليك لأخبرك بما جرى"، قال هلال ثم قام وخرج من بيت صديقه، ومشى نحو بيته بوجهٍ عابس وقلب حزين، وبالطبع لم يستطع فعل شيء سوى الخضوع لأمره الواقع.

ثلاثة أيام مروا وفي صباح اليوم الرابع كان إبراهيم جالسًا بجانب زوجته فقالت له:

"فلتبقى هكذا لا تحرك ساكنًا حتى يأتي اليوم الذي تجد فيه رداءك قد اختفى، وكل شيء فعلته به ستراه مُدمرا".

سأل إبراهيم في حيرة: "وماذا عليّ أن أفعل برأيك؟".

أجابت زوجته بحدة:

"قُم وتحرك وانتهز الفرصة، فأنت بيدك سلاح قوته في الأسبقية... تخلص من سلاح أخيك الحاقد ذاك، فهو لا

يُخفى الحقد حتى في كلامه الطيب، الذي يتصنع وهو يقوله كي يخدعك، لا شك في أنه يريدك أفقر منه كما كنت، ويريد أن يجعلك خادمه كما كنت، وإن لم تتحرك سيسبقك ويتمنَّى أن يضيع رداؤك وكل مالك".

قال إبراهيم:

"لا، لا أظن أن شره يصل لهذه الدرجة، فبعد ذلك الرداء لا أحد يفكر في الآخر. فكل واحدٍ مشغول بحاله وبالنعيم الذي يحيا فيه... فما الداعي لأن يفعل أَحَدٌ بِآخَر ما تقولينه، هذا شيء لا يصدقه عقل".

ابتسمت الزوجة ساخرة وقالت: "أمرك عجيب... وكأنك نسيت سالم وما فعله، ولولا أبو الفداء لجعلنا كلنا عبيدًا له في أقرب وقت، ألم تفكر فيما حدث وما فعله؟ يجب أن تعرف أن أخاك سيفعل بك كما فعل سالم من قبل بالبلد".

لمَّا سمع إبراهيم هذا الكلام شرد ذهنه وتفكَّر لدقيقة ثم قال: "والله لا أعرف، فهذا الأمر محير حقًّا، فكلامك يبدو صحيحًا... ولكني أخشى أن أكون ظالمًا، فلم تظهر أمامي

دلالات كافية حتى أتأكد من هذا... ولذلك لا أعرف كيف أتصرف".

"الأمر ليس محيرًا على الإطلاق، هيَّا قُم الآن وتخلص من سلاح عدوك قبل أن يفعلها هو وتندم... عليك أن ترتدي الرداء وتتمنى أن يختفي رداؤه... ولا يعود إليه أبدًا حتى ولو بقوة رداء آخر، كي تكون بأمانٍ تام، فيجب ألَّا نترك أمامه سبيلًا لاستعادته".

شرد ذهن إبراهيم الحيران الخائف، واستمر يفكر في رغبةٍ استمرت زوجته تدفعه لتنفيذها، ثم قال:

"في الحقيقة هذا الأمر صعب ويحتاج إلى وقت لاتخاذ قرار فيه، أمهليني قليل من الوقت حتى أتخذ قرارًا صائبًا لا يجعلني أندم".

قالت الزوجة بغيظ: "يبدو أنك لا تسمع نصيحتي وكأنني عدوتك، فكما تريد... انتظر حتى تصحو ذات يوم لتجد نفسك خادمًا لأخيك كما كنت بالماضي، وربما يدفعه شره لأن يتمنى كما تمنَّى سالم ويسيطر على البلد بأكمله، وأظن

أنك تعرف جيدًا أن أبو الفداء قد اختفى ولن نجد من ينقذنا هذه المرة".

"لن يمر اليوم إلَّا وقد حسمت هذا الأمر، إمَّا بالفعل أو بنسيانه إلى الأبد"، قال إبراهيم هذا القول، فشعرت الزوجة ببعض الطمأنينة وقالت: "حسنًا، ولكن لا تدع للتأجيل فرصة، فالوقت ليس في صالحك"، وبهذه الجملة انتهى الحوار الدائر وقضى إبراهيم يومه لا يفعل شيء سوى التفكر والتخيل، حتى اتَّخذ قرارًا لا رجعة فيه، فذهب إلى حيث كانت زوجته، ولمَّا صار واقفًا أمامها قال:

"لقد حسمت الأمر أخيرًا واتخذت القرار".

انتفض قلبها خوفًا من أن يخيب أملها برفضٍ لا نقاش فيه، وسألت:

"وماذا قررت أن تفعل؟".

"لقد حسمت الأمر بأن أقضي على رداء أخي، فأنا عندما فكرت في الأمر تذكرت ما كان يحدث من قبل، وتأكدت من أنه ربما يأتي اليوم ويُرجعني كما كنت خادمًا له... فأنا

أشعر دومًا بكرهه الشديد لي وعشقه لإذلالي، ولذلك لن أترك له ولو فرصة واحدة ليعود بها كما كان وأعود أنا كما كنت، وما أخافني أيضًا هو الصورة التي رأيناها لشاهين الذي كان يعطي أخاه الشراب المسموم ليتخلص منه، فيبدو أن الأخوة ليست مانعًا ضد الخيانة والغدر، ويجب علينا أن نحذر ونبادر بحماية أنفسنا من شرور أقرب الناس إلينا".

انشرح قلب الزوجة وقالت له وهي تكاد تطير من الفرح: "هذا هو الكلام السليم... أحسنت وصاب قرارك، وأنت لن تفعل به ما كان سيفعله بك؛ سوف تتجنب شره وحسب، ولتترك له ما يملكه كما هو".

"نعم معكِ حق، وهذا ما فكرت فيه أيضًا"، قالها ثم ذهب إلى غرفته وارتدى الرداء وقال: "أتمنى أن يفقد أخي رداءه الآن، ولا يعود إليه من جديد حتى ولو بقوة رداء آخر".

باشتعال الرداء كما حدث مع هلال ونعمان، فزِعَ إبراهيم وخلعه ورماه على الأرض وظلَّ ينظر إليه وهو يحترق في ذهول ويقول: "يا ويلي لقد ضاع الرداء... لقد أضعت الرداء من

يدي"، ثم خرج من غرفته كالثور الهائج وصفع زوجته، فصرخت صرخة مدوية وقالت: "ماذا حدث؟!".

قال لها وهو مشتعل من الغضب: "أيتها اللعينة، لقد احترق الرداء حين تمنيت تلك الأمنية".

فزعت وتساءلت برعب: "كيف؟ ولماذا؟".

"أتسألين عن السبب!؟ مؤكد أنه من أمنيتك الحمقاء... يا لغبائي، لماذا أطعتك واتبعت أفكاركِ الشيطانية، لقد ضاع الرداء بسبب قلبك المريض".

حاولت الزوجة الباكية تبرير ما حدث ببعض الكلمات البائسات: "لقد كنت أقصد حمايتك والحفاظ على مالك".

قال إبراهيم وعيناه ينبعث منهما الشر: "هيَّا اغربي عن وجهي"، ثم دفعها دفعات قوية بيده كادت تسقطها وهو يقول: "هيَّا، هيَّا من هنا، اذهبي لبيت أمك... وإن لم أجد حلًّا وأُعيد الرداء فلن تعودي أبدًا، هيَّا".

ذهبت الزوجة كما أمرها ودموعها تهطل، ولم يشفق عليها الزوج الغاضب ولا على أطفالها الذين تعلقوا بثياب أمهم

يبكون مطالبين إياها بالبقاء بجانبهم وعدم ترك المنزل والرحيل، وكان هذا هو المنزل الثالث الذي يفقد رداءه.

وفي اليوم التالي كان هناك منزل آخر على موعد مع وداع الرداء، حيث كانت تعيش فيه أسرة بها فتاة تُدعى غيداء... وكانت لغيداء صديقة تمت خطبتها لأحد الشباب منذ يومين، وفي وقت كان الجو مناسبًا تسللت غيداء إلى غرفة أبيها وأخرجت الرداء من الصندوق، وارتدته بابتسامة وقالت باستعجال وحذر:

"أتمنى أن يراها أقبح من القرد، وأن يخبرها بهذا ثم يصفعها ويأتي لخطبتي أنا"، وعلى الفور حدث ما حدث مع الثلاثة السابقون، واشتعل الرداء... فرمته وهي مذعورة وحين رأته صار رماد كاد قلبها أن يخرج من قوة وسرعة النبض، وقالت في فزع ودهشة:

"يا ويلي، ماذا حدث له... لو علم أبي لقتلني، يجب أن أغادر هذه الغرفة الآن"، ثم خرجت مسرعة وذهبت إلى أمها التي كانت في حظيرة الدجاج، لتبدأ التظاهر بمساعدتها في

جمع البيض، قبل أن يراها أحد في مسرح الجريمة ويعرف ما حدث، وتنال عقابًا لا رحمة فيه.

* * *

ومرَّت الأيام وحادثة فقدان الرداء تتكرر كل يوم مع تغيُّر الأماني، ولم ينتشر الخبر بين الناس حيث ارتبطت كل حادثة بأمنية سيئة تمناها صاحب الضحية، فكانت النتيجة هي التكتم مخافة أن يعرف الناس سبب ما حدث ويلحقه العار، وذات صباح ذهب هلال إلى بيت أبي الفداء من جديد ليسأل هل عاد أم لا، وحين اقترب من باب بيته سمع ورأى زوجته تصيح في أحد الرجال بانفعال، مطالبة إياه بعدم القدوم مرة أخرى وهي تقول:

"أقسم لك بالله إننا لا نعرف مكان وجوده، وأرجوك لا تأتي إلى هنا مرة أخرى، لقد جئت وسألت عنه عشرين مرة وكل مرة أُخبرك أنه ليس هنا، ولكن يبدو أنك لا تصدقني، أتريد أن تدخل البيت وتبحث فيه لتتأكد بنفسك أنه ليس هنا؟"، ثم أغلقت الباب بقسوة وغضب وهي تقول: "سامحك الله يا أبا الفداء، لقد تركتني وحدي لأولئك المجانين"، وتحرك الرجل

الذي كان وجهه يحمل كآبة الدنيا بأكملها مبتعدًا عن بيته، أمَّا هلال الذي رأى ذلك المشهد عاد أدراجه بعد يأسه من عودة أبي الفداء، ولأنه كان يريد الرداء، لم يجد سوى صديقه الذي خاصمه منذ يوم احتراق ردائه، وحين تقابلا قال له صديقه بوجه عابس:

"ما الذي أتى بك مجددا؟".

أجاب هلال:

"أعتذر لك عما بدر مني يومها، فقد كانت حالتي النفسية سيئة بسبب ما حدث".

قال صديقه: "حسنًا، لا بأس، هيَّا ادخل".

دخل هلال ومع جلوسه قال الصديق:

"أخبرني إذًا، ماذا كانت تلك الأمنية التي جعلت رداءك يحترق؟".

أجاب هلال في خجل: "لقد تمنيت أن يموت زوجها خالد، كي أتزوجها أنا".

فزعَ صديقه وقال في دهشة واستياء:

"ألهذا الحد وصل جنونك بها!؟".

قال هلال بصوت خفيت: "نعم، لم أكن أتخيل أنني سأتحمل العيش من دونها، ولكن بعد ما حدث شعرت أنني شُفيت، فقد ندمت، وأريد أن أعرف مكان أبي الفداء حتى يمنحني رداء جديدا، وأتمنى أن تساعدني على هذا".

"وكيف لي أن أساعدك على الوصول إليه؟ فأنا أيضًا لا أعرف مكان وجوده".

"أريدك أن ترتدي الرداء وتعرف أين هو، أرجوك... فأنا أرغب في الذهاب إليه والتحدث معه، أو هناك حَلٌّ آخر، وهو أن تستخدم رداءك في إعطائي رداءً جديدًا بدلًا من الذي احترق".

شعر صديقه بالقلق واستمر صامتًا لثوانٍ ينظر إليه ثم قال:

"أظن أن الحل الأول هو الأنسب، فأبو الفداء يجب أن يعلم أولًا، وهو من يقرر إعطاؤك رداءً آخر أم لا، ولكن عليك أن تعدني بألَّا تتمنى به أي شيء يخص تلك المرأة مرة أخرى".

قال هلال في عجلةٍ:

"بالطبع أعدك، لا تقلق... فأنا نسيت ذلك الحب إلى الأبد، حتى أنني صرت أكرهها وأكره التفكير فيها".

قام صديقه وهو يقول "حسنًا، هذا جيد"، ثم ذهب وأحضر الرداء وارتداه وعاد إلى هلال وجلس بجانبه وقال:

"أتمنَّى أن أعرف مكان وجود أبي الفداء".

بعد نطقه بالأمنية بدأت رائحة الدخان تنبعث من وراء ظهره، فأدار رأسه ليجد الرداء قد اشتعل، فخلعه ورماه على الأرض وأخذ ينظر إليه وهو يحترق حتى صار رَمَادًا ... ثم نظر إلى هلال والغضب يُطلق قذائف من عينيه، ما جعل هلال المرعوب يفر هارب، فجرى وراءه بأقصى سرعته حتى يلحق به ويعاقبه، محاولًا التغلب على وزنه الثقيل الذي يَحُول بينه وبين الركض بسرعة واللحاق بهلال السريع.

* * *

ومضت الأيام حتى فات شهران كاملان وأبو الفداء ما زال بعيدًا ولا أحد يعرف مكان وجوده، وفي يومٍ ما كان جالسًا

على كرسي خشبي في حديقة جميلة، لمنزلٍ صغير يعيش فيه منذ أن ترك بيته وأسرته، وكان المكان ساحرًا... فالحديقة مليئة بالزهور الملونة، والطيور في كل مكان تعزف أجمل ألحان يمكن أن يسمعها إنسان... وكان أبو الفداء في هذه اللحظة يتفكر فقال لنفسه:

"يا ترى ماذا حدث لأهل البلد؟ وكم واحدٍ ما زال الرداء معه؟"، تساءل ثم قام ودخل المنزل وجلب الرداء وارتداه، وعاد وجلس على الكرسي نفسه ثم قال:

"أتمنى أن أعرف عدد الذين ما زال الرداء معهم"، فوجد ورقة شجر كبيرة تتدلَّى من الأعلى حتى سقطت أمام عينيه وكان مكتوبًا عليها:

"لا أحد".

صدمته النتيجة وجعلته يقول: "لا أحد! لا حول ولا قوة إلا بالله... أبهذه السرعة أضاعه الكل!"، ثم استمر صامتًا لثوانٍ يشعر بالحسرة والألم بعد نتيجة أظهرت مدى سطوة الشر على قلوب الناس، ثم تمنَّى مجددًا:

"أتمنَّى معرفة أحوال الناس"، فظهرت صورة رجل يبكي هو وزوجته وأبناؤه وأمامهم جثة أحد الأبناء، وكان الرجل يقول في وجع وتأوه: "يا ليتني ما أضعت الرداء، فلو كان معي لما استطاعوا أن يقتلوك يا بُني".

أغمَّه ما رأى وتمنى أن يرى غيره... فظهر مشهد لرجل جاثٍ في بستانه المحترق وهو يقول بحزن: "لقد ضاع كل شيء... ضاع المال وضاع الرداء وسأعود فقيرًا كما كنت، وسنعود للسؤال كما كُنَّا، يا حسرتا على نعمة قصيرة الأمد".

وبتمني رؤية المزيد ظهرت أمٌّ تبكي بحرقة وتقول وهي تحدث زوجها وأبناءها في غضب: "لقد أضعتم الرداء ولم نعرف طريقًا لأبي الفداء وراحت ابنتي ضحية لكم، فلو كان موجودًا لحصُلنا على ترياق للسم... اللعنة عليكم وعلى أمانيكم الشريرة".

لم يتحمل أبو الفداء رؤية المزيد وقال في عجلةٍ:

"أتمنَّى أن تعود الأردية إليهم من جديد بلا شروط". وعلى الرغم من أن الأمنية بدت طيبة خالية من الشرور، اشتعل الرداء... فهبَّ واقفًا ثم خلعه وألقى به على الأرض، وحدث

كما حدث مع غيره، وتحوَّل في ثوانٍ إلى رماد... فاستمر ينظر إليه بحسرةٍ وحيرة، وعجْزٍ عن تفسير ما جرى.

* * *

بعد احتراق الرداء الذي لم يُدرك أبو الفداء سببه جلس وأخذ يتأمل لدقائق... ثم ابتسم ابتسامة الرضى وقام وجمع رماده، وحفر بيده حفرة صغيرة ووضعه فيها.

وبعد وضع الرماد بداخل الحفرة، أغلقها وذهب وجلب قطعة خشب وكتب عليها (الرداء)... وكتب بجانب اسمه المدة التي استمر فيها موجودًا في حياته حتى انتهى... والتي لم تكن طويلة، مجرد شهور لم تصمد لتصبح عامًا، ثم قام بغرسها فوقه وكأنها شاهد قبر وهو يشعر بالألم، فقد أحسَّ وكأنه فَقَدَ إنسانًا عزيزًا عليه.

وفور دفنه للرداء عاد للجلوس على كرسيه، ثم أخرج الورقة والحبر والقلم من جيبه، وبدأ برسم دائرة وكتب بداخل الدائرة كلمتان هما:

"أرض وبشر".

ثم كتب خارج إطار الدائرة:

"طعام، شراب، دواء لأي داء، ونعيم بلا حدود".

ثم توقف عن الكتابة وسأل نفسه:

"وماذا بعد؟".

بهذا السؤال استمر يفكر لدقائق ثم قام بتمزيق الورقة وألقى بقِطَعِها، وبدأ يكتب على ورقة أُخرى حتى انتهى، وما كتبه كان:

"هكذا الإنسان بأهوائه ونفسه التي لا ترضى ولا تحمد الله على نعمهِ... تُحوِّل كل شيء جميل إلى شيء كريه؛ تستبدل الراحة والطمأنينة بالقلق والخوف، تُحوِّل النعمة إلى نقمة وشقاء، وتصير على يده الأحلام التي أضحت واقعًا، رفاتًا لا ينبعث من ذكراه سوى الألم".

بعدما كتب هذه الكلمات، ثنى الورقة ووضعها هي والقلم والحبر في جيبه، ثم قام وبدأ يُحمِّل أغراضه حتى انتهى من تحميلها على حصانه، الذي اِمْتَطَاهُ لينطلق عائدًا إلى بيته.